

15
روايات مصرية للجيب
فانتازيا
إعدام فى البرج
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًّا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًّا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جمعيًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

★ ★ ★

١ـ جسر (لندن) يهوى ..

يتقدم قطار (فانتازيا) العجيب وسط مشاهد تلكم المملكة التى لم يرها مخلوق سوى فى خياله ، فيما عدا واحدة محظوظة اسمها (عبير) ..

وترمق (عبير) معالم المملكة من النافذة ..

تتذكر بعض الأماكن فتتوق إليها أو تكرهها .. ولا تتذكر أنها رأت أماكن أخرى فتتمنى لو تجرب ..

ويواصل القطار مسيرته ، ويواصل المرشد مداعبة زنبرك قلمه ، كأنما هو عميل متعجل فى مصرف يريد التوقيع سريعًا للحصول على ماله .

ترى (عبير) لافتة كبيرة تقول : ألعاب تاريخية ..

فتسأل المرشد وهى ـ تقريبًا ـ تعرف الإجابة :

ـ « ما هذا الجزء من (فانتازيا) ؟ »

فيقول لها دون أن ينظر للخارج :

ـ « إن اللافتة جديدة لكن المكان قديم .. لقد زرته من قبل فى (خيول ورماح) و(الخناقون) .. »

- « وماذا يميز هذا المكان ؟ »

- « إنه ليس خيالا كله .. هو يعتمد فى أساسه على حقيقة تاريخية صلبة ، لكن مع بعض التحوير الذى يسمح باندماجك فيه .. فى قصة (رعمسيس) لا يوجد مرجع تاريخى يقول إن له ابنة اسمها (إرمنحات) ، وبالطبع لا أحد يعرف دورا لمعلمة إنجليزية شابة فى قهر الخناقين .. »

شهقت وقد فهمت :

- « آه ! العسل فى السم أو العكس .. إدخال بعض الخيال على الحقيقة .. »

- « هو كذلك .. هل تريدين أن تجربى ؟ »

- « بالتأكيد !! »

وهكذا شد المرشد الحبل فى صرامة ..

★ ★ ★

يمشيان فى الحديقة المتسعة التى تقود إلى .. إلام ؟ الحق أننى لا أدرى .. فهى حديقة لا يبدو لها آخر ، والآن لم يعد يبدو لها أول ..

فقط كانت هناك أسهم تشير فى كل صوب :

« بطولات عربية » ..

« عصر النهضة الأوروبى » ..

« حروب صليبية » ..

« الثورة الفرنسية » ..

« شجرة الدر » ...... إلخ ...

قالت للمرشد وهى تتأمل كل هذا :

- « كنت ضعيفة جدًا فى التاريخ ، وأعتبره نوعًا من النميمة المهذبة »

قال لها فى ملل وهو يتقدمها :

- « المشكلة أننى - منذ عرفتك - لم أسمع عن علم واحد لم تكونى ضعيفة فيه .. إنها لمعجزة أنك اجتزت المرحلة الابتدائية .. لكن هذا ديدن الحالمين .. عقلهم حصان جامح يأبى أن يضع سرج الدراسة فوق ظهره .. إنه يركل .. يرفس .. ثم ينطلق لا يلوى على شىء فى سهول الشرود .. »

- « لتنس لومى لحظة وقل لى : هل أنا بحاجة إلى خلفية تاريخية ما لأجتاز هذه المغامرة .. »

- أنت قرأت عنها من ...... »

ثم قطع كلامه ليسد الطريق عليها بجسده ، وفى اللحظة التالية رأت ستة جياد تركض مبعثرة الغبار فى كل صوب ، وفوق ظهورها ستة فرسان لا يبعث منظرهم الراحة فى النفس .. كانوا سمر الوجوه ، لكن عيونهم ضيقة كعيون الـ .....

- التتار ! هؤلاء من جنود (كتبغا) ذاهبون للقتل أو عائدون منه .. »

قالها وهو يرمق الجياد تبتعد .. ثم عاد يقول وقد استرد الخيط :

- « كل هذه الذكريات لم تفارق ذهنك ، لكنك نسيت أنك لم تنسى .. ولسوف تندمجين فى أحداث أية قصة تدخلينها على الفور .. هل تعرفين لماذا لم نجد لافتة (معركة الأردين) هنا ؟ »

- « لا أعرف .. »

- « لأنك لم تسمعى عنها قط ! نياتياهاهاه ! »

وراح يضحك تلك الضحكة السمجة ، التى ما إن تسمعها حتى تحمد الله على أنها حدث نادر .. لحسن الحظ أن المرشد لا يملك روح الدعابة ، وإلا كانت كارثة ..

رأت (عبير) لافتة كبيرة تقول : إنجلترا - هنرى الثامن ..

فسألت المرشد :

- « هل أنت واثق من أننى قرأت هذا الموضوع يوما ؟ »

- « إذن من أين جاء ؟ أنا لم آت به هنا .. عقلك الباطن هو ما فعل »

- « إذن دعنا نجرب هذا ... »

نظر لها نصف منذر ، وسألها وهو يعيد القلم إلى جيب سترته :

- « ولا ندم بعد ذلك ؟ »

- « لا ندم .. لقد رأيت الأسوأ »

- « هذا ما يقوله الجميع .. لكن هناك دائما ما هو أسوأ من الأسوأ .. »

- « كفى فلسفة وخذنى إلى هناك .. »

★ ★ ★

وعلى الفور تحول المشهد إلى حقل يتلألأ فى ضوء الشمس عاكساً ألف درجة من اللون الأخضر .. ثمة نهير صغير يترقرق ، وراع يعزف الناى لحبيبته ، وأغنام هى قطع من السحب غدت لها أرجل ..

ومن بعيد كانت طاحونة هوائية يلهو حولها الغلمان ..

لو كانت (عبير) تفهم فى هذه الأمور ، لحسبت أنها ترى إحدى لوحات (رينولدز) أو (كونستابل) أو (جينسبورو) .. لكنها أدركت أن المكان جديل فحسب ..

قالت للمرشد :

- « ما الخطر الذى يمكن أن ...... ؟ »

هذه المرة لم يصطدم صوتها بجسده ، وفهمت على الفور أنه رحل .. رحل قبل أن يخبرها من هى ...

لا يهم .. ستعرف بنفسها ..

★ ★ ★

كان هناك حشد من الخيول المطهمة ، يركبها رجال أدركت أنهم فى ذروة أناقتهم برغم طراز الثياب العتيق ...

الحصان الأول يركبه ثور آدمى هائل الحجم عظيم البطن ، زاد نفسه ضخامة على ضخامة بكتفى حلته العريضين ..

وفوق رأسه كانت قبعة هائلة الحجم مزدانة بالريش .. وعلى صدره تنساب قلادة عملاقة .. كل شىء فيه كان ضخمًا أو غليظًا أو فخيمًا بشكل مستفز ..

وسمعت من يقول لها :

ـ « لقد عاد الملك (هنرى الثامن) من رحلة الصيد .. »

إذن هو أنت ...

ونظرت للعتل الصفيق فى كثير من رهبة ، ولم تحتج إلى ذكاء كثير كى تعرف أنه يتجه بحصانه نحوها .....

هى بالذات ...

★ ★ ★

٢ ـ مأدبة ودرس فى التاريخ ..

ترجل من فوق حصانه فى رشاقة ندر أن تراها مع حجم كهذا ، ودنا منها فتوقعت أن يلثم يدها .. لكنه ـ بدلا من ذلك ـ فرد صدره ومدّ لها يده الملأى بالخواتم الذهبية ...

آه ! إنه يريدها هى أن تلثم يده ، وهو ـ نظرًا لكونه ملكًا ـ شرف عظيم لها ..

ترجل أحد تابعى الملك عن جواده ، وكان نحيلًا بارز العظام له عينا ثعلب .. رجل من النوع الذى لا يثق به إلا أحمق ..

قال لها ضاحكا فى رياء وهو يرمق المشهد :

ـ « هلمى يا فتاة .. التمى يد الملك واستمتعى بفرصة العمر ! »

نظرت له فى غلّ ، وودت لو تصارحه برأيها فى فرصة العمر هذه ، التى لا تجد فى نفسها أدنى ميل لاغتنامها .. لماذا تلثم هذه اليد المشعرة المكنزة دون أن تطلب هذا ؟

قال الملك (هنرى) وهو ينتظر الفرج :

ـ « إنها خجلى يا (أوليفر) .. وهذا ما يزيدها سحرًا ! »

قررت ألا تعقد الأمور .. فانحنت فى رشاقة ـ أو هكذا حسبت ـ وطبعت قبلةَ على اليد ..

قال (أوليفر) وهو يتأملها فى رضا :

ـ « اسمها (آن) يا سيدى .. (آن بولين) .. »

التقط (هنرى) ذقنها بين إبهامه وباقى أطراف أنامله ، وكأنما يمسك ببيضة على مائدة الإفطار ، وقال:

ـ « (آن بولين) ! جميل ! جميل ! »

ثم مدَ ذراعه لها داعيًا إياها كى تتأبطه ..

أخذت نفسًا عميقًا ودست ذراعها فى الفتحة الضيقة ، فمضى يمشى بها وسط المروج بتؤدة ..

وفى هذه المرة أدركت بحق مبلغ ضخامته .. تشعر أنها تمشى جوار دبَ أشهب ثرثار .

قال لها :

ـ « هل تحبين أشعارى ؟ »

إذن هو شاعر .. ولكن هل هو شاعر جيد ؟ دعونا نر ..

كان يتكلم بالإنجليزية العتيقة ـ إنجليزية القرن السادس عشر ـ الملأى بالـ thy والـ thou والـ thine ،

فلم تفهم شيئًا برغم كونها فى (فانتازيا) ، لكنها أدركت من إيقاع الشعر أنه ردىء ..

وكالعادة أبدى الثعلب الناحل ـ عرفت أن اسمه (أوليفر كرومويل) ـ انبهاره الشديد بفصاحة (هنرى الثامن) وعظمة شعره ..

هنا رأت رجلاً عجوزًا يبدو عليه الإنهاك وبعض الملل ، يقف جوار حصانه كأنما ليس له شأن فى هذه المهزلة ..

كان نبيل السمات تحمل عيناه طيبة واضحة ، وصراحةَ لا تدارى ... نظرت له فى إعجاب لحظة ، فابتسم حين لاحظ عينيها ، وهزَ رأسه قائلاً بنبرة راقية :

ـ « كذا شأن الملك (هنرى) .. إنه لا يتعب من الصيد والقنص .. يبدأ رياضته فى الرابعة صباحًا ويستمر حتى الليل ، حتى ليعتبر رفاقه فى الصيد أنفسهم شهداء .. هذا الرجل لا تنهكه الرياضة أبدًا .. »

شعرت بارتياح فورى له ، فدنت منه سائلة :

ـ « لكنه بدين كالـ .. كالـ .... »

هزَ رأسه كأنما يعفيها من اختيار اللفظ ، وقال :

ـ « الرياضة وحدها غير كافية .. فهو يأكل كأنما

سيموت غداً .. وشراهته مضرب الأمثال فى أوروبا كلها .. »

- « من أنت أيها النبيل ؟ »

نزع قبعته المزدانة بالريش ، والتى بدت متواضعة برغم هذا :

- « محسوبك سير (توماس مور) .. رجل قانون يحاول أن يكون شريفاً .. »

ثم صمت إذ رأى (هنرى الثامن) يدنو ..

قال هذا الأخير فى حماسة بلهجة من لا يقبل مناقشة :

- « الآنسة (آن) ستلحق بنا الليلة .. فهى مدعوة إلى العشاء .. »

قالت (عبير) فى خجل :

- « كنت أرغب فى أن .... »

- « ششش ! »

قالها (كرومويل) همساً ، ولكزها فى خصرها بقوة لا بأس بها :

- « المرء لا يرفض دعوة الملك على العشاء أبداً ما لم يكن سيئ الأدب .. »

★ ★ ★



نزع قبعته المزدانة بالريش ، والتى بدت متواضعة برغم هذا :
- محسوبك سير «توماس مور» ..

العشاء فى البلاط الإنجليزى فى القرن السادس عشر :

كانت النسوة جميعًا يرتدين ما يشبه (الطرحة) على رءوسهن ، وإن كانت (الديكولتيهات) أكثر اتساعًا من المعتاد .. أما الرجال فكانوا يعتمرون القبعات ذات ريش النعام .. وهى قبعات تتراوح فى بهرجتها بين المتواضعة والمتعالية الشبيهة بالطاووس ، وكلهم كانوا يرتدون عباءات تجعل الأكتاف أكثر عرضًا ، بينما السيقان لا يسترها سوى جورب طويل ملتصق بها كالـ (سترتش) .. مما يعطى تناقضًا بين نصف الرجل الأعلى الضخم ، ونصفه الأسفل النحيل ..

كانوا يرقصون .. ورقصهم نوع من المشى المنمق .. صف تقف به النساء وصف يقف به الرجال ، ثم يتقارب الصفان فيمسك كل رجل بيد رفيقته فى الرقص ، ويمشى بها فى بطء .. هكذا ! لا أكثر ولا أقل .. حتى إنك لتتساءل عن متعة هذا الرقص ..

وفى صدر المأدبة ، ضخمًا كالكابوس ، يجلس (هنرى الثامن) مزدانًا بالذهب والفضة .. يمسك كأسًا من ذهب فى يده اليسرى ، وفخذ عجل صغير فى يده اليمنى .. واللحم المفتت يتناثر على لحيته ..

وكعادة النبلاء فى تلك العصور كان يستعمل الخنجر فى كل شىء ..

يستعمله كسكين وكشوكة وكملعقة ، فإذا قرر استعمال يديه غرس الخنجر فى المائدة أمامه وضحك كالوحوش ..

- « ها ها ها هاه ! المزيد من الشراب أيها الساقى ! »

ثم يتجشأ دون حيطة ..

جواره كانت تجلس امرأة متأنقة متقدمة فى السن ، تبتسم فى وقار .. لكن عينيها تنطقان بألم وحزن لا شك فيهما .. نظرة كسيرة تحاول التظاهر بأنها ليست كذلك ...

تساءلت (عبير) فى سرها :

- « حسن .. أنا أذكر طيفًا عن هذه القصة .. أنا (آن بولين) التى سيتزوجها الملك (هنرى الثامن) .. لكن من هذه المرأة التى تجلس بجواره ؟ »

هنا فوجئت بالمرأة تناديها بإيماءة وقور ...

مشت (عبير) نحوها غير فاهمة ، فقربت أذنها من فم المرأة كى تسمع ما تقول وسط الصخب ..

قالت المرأة فى امتعاض :

- أريد بعض العطر يا (آن) .. فالرائحة لا تطاق ! »

إذن فالمرأة تملك حق إعطائها الأوامر .. ماذا يحدث هنا ؟ وما هى وظيفة (آن) فعلا ؟

تدخل (هنرى الثامن) وكان يتابع المحادثة من طرف :

- « لا تعطيها أوامر يا (كاترين) ! »

- « لا تنس أنها وصيفتى يا (هنرى) .. »

- « ولا تنسى أنها .. أنها .... »

ولم يجد ما يقال .. فانقض على فخذ العجل يزدردها على ثلاث مرات متوالية ... ثم جرع الكأس على مرة واحدة ..

هنا قررت (آن) / (عبير) أن تحضر العطر .. من أين ؟ من المكان الذى يحضرون منه العطور طبعًا ....

غادرت القاعة ، ووجدت وصيفة ما تقف فى الردهة ، فهرعت نحوها وسألتها :

- « قولى لى يا (حبيبتى) .. إن السيدة (كاترين) تريد عطرا و .... »

اتسعت عينا الوصيفة الشقراء ، وهزت رأسها مستهينة وقالت :

- « دعى هذا جانبا .. لا أحد يهتم بأمرها الآن .. لقد صارت أسهمها فى الحضيض منذ سئمها الملك .. ولو كانت تريد عطرا فلتأت به لنفسها .. »

- « وما اسمك ؟ »

- « (كلاريس) .. إنه لاسم جميل لكنه لا يحظى لدى الملك بأهمية اسمك ! »

هكذا إذن ؟

حين اختارت (عبير) هذا الزمن ، كانت تطمح إلى دور أرقى من دور الخادمة ، التى يترك الملك زوجته من أجلها .. وبدا لها هذا الدور مبتذلا مهينا وعلى قدر من السخف ..

ضمت (عبير) أناملها فى شكل القمع ، ورفعتها فى وجه الوصيفة :

- « لحظة من فضلك .. هذا البدين يحوم حولى .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى يا ملاكى .. الكل لاحظ هذا .. »

- « وأنا وصيفة زوجته ؟ »

- « تتحدثين بحمق .. الكل يعرف الشىء ذاته .. »

هنا رأت من يمشى عبر الرواق المظلم دانيا منهما ،

كان وجهه فى الظلام .. لكنها رأت القلم ذا الزنبرك فى يده ، يواصل لعبته المقيتة .. لقد كان هذا هو المرشد .. وكان من النادر أن يظهر فى المغامرة ..

حياها بهزة رأس ، ثم وضع يده على كتف (كلاريس) قائلاً برفق :

- « اسمعى أيتها الحسناء .. لسوف يسرنى لأسباب كثيرة أن تجيبى عن أسئلة (آن بولين) التى قد تبدو لك غبية أو بديهية .. علينا أن نضعها فى جو القصة كما تعلمين ، وأنا أراهن على أنها لا تعرف شيئا عن (كاترين) و (هنرى الثامن) .. »

هزت (كلاريس) رأسها فى رهبة ..

واستدار المرشد نحو (عبير) ، وبلهجة تقريرية قال :

- « ستدخلين معها إلى المخدع ، وتصغين جيدًا لما تقول .. »

وهز رأسه على سبيل التحية .. وابتعد ليذوب فى الظلام ..

★ ★ ★

فى المخدع - على ضوء الشموع الحار - راحت (كلاريس) تجفف قطرات العرق ، التى احتشدت على

أرنبة أنفها الملأى بالنمش ، وحكت لـ (عبير) كل شىء عن ذلك الفصل الرهيب من تاريخ (انجلترا) ..

قالت :

- ما إن استولى الزوجان الأسبانيان (فردناند وإيزابلا) على (غرناطة) آخر معاقل العرب فى الأندلس(*) ، حتى فكرا فى أن يصاهرا الأسرة المالكة الإنجليزية لتكون جبهة موحدة ضد (فرنسا) ..

« العروس كانت (كاترين) ابنة الزوجين .. والعريس كان (آرثر) ولى عهد (انجلترا) الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره ..

« جاءت العروس إلى (إنجلترا) ، وكانت احتفالات الزواج جديرة بألف ليلة وليلة حقًا .. وقد أحب الإنجليز ملكتهم الأسبانية على الفور ، لجمالها ورقتها وتواضعها .

« وفجأة مات العريس بعلة مجهولة - وكل العلل فى ذلك الزمن مجهولة - فلم يجد الملك سوى أن يزوج الأرملة الشابة ابنه الأصغر (هنرى) .. برغم فارق السن بينهما ..

(*) العام ١٤٩٢ م .. وهو عام حزين بالنسبة للعرب .

« وفى عام ١٥٠٩ مات الملك الأب ، ونودى بـ (هنرى الثامن) ملكا لإنجلترا ، وكان فى الثامنة عشرة وقتها .... »

ـ قالت (كلاريس) وهى ترى الاهتمام فى عينى (عبير) :

ـ « الحق أن حفل التتويج كان أسطوريًا .. لقد كان الملك (هنرى) وسيمًا ، جميل المحيا ، رشيقا كالحلم ، وقد ركب جوادًا مطهمًا عظيمًا فى طريقه من قلعة لندن إلى كنيسة (وستمنستر) ، حيث كان ينتظره أسقف (كانتربورى) ليمسح على رأسه بالزيت المقدس من ملعقة ذهبية ..

أما الملكة (كاترين) فجاءت لترى حفل التتويج على محفة ، ترتدى ثوبًا من الحرير ناصع البياض ..

« وراح أهل (لندن) يهتفون ، ويلقون بالزهور والرياحين على المشهد ، والغريب أنه من الأيام القليلة التى لم يكفهر فيها جو (لندن) اللعين ..

« لم يخطر ببال أحد أنهم يرون أتعس زوجين فى التاريخ ، وأقلهم اتفاقًا فى الطبائع .. أنت رأيت الملكة (كاترين) .. إنها إنسانة متدينة مهذبة بها نزوع

إلى التقشف ، لا تكف عن صيام يومى الجمعة والسبت ، ولا عن قراءة سير القديسين ..

« أما (هنرى) فهو من أشد الناس حبًا للحياة ، ولاستغلال نفوذه والاستمتاع بكل المتع مشروعة كانت أم محرمة ..

« وفى نهاية العام الأول من الزواج وضعت (كاترين) طفلها الأول ، الذى انعقدت عليه آمال (هنرى) فى وريث للعرش ..

« لكنها ارتكبت غلطتين : أولا : كان المولود أنثى .. ثانيا : كان المولود ميتًا .. ومن العسير نوعًا أن تتولى عرش إنجلترا أنثى ميتة لو أنك طلبت رأيى ..

« بعد هذا حاولت (كاترين) مرتين .. المرة الأولى ظفرت منها بوليد ذكر لكنه ميت .. والمرة الثانية ظفرت منها بوليدة ميتة ..

« فيما بعد عرف التاريخ أن (هنرى) لم يكن ملعونا ، لكنه كان مصابًا بمرض عضال فى دمه يقضى على ذريته أولا فأولا .. »

سألتها (عبير) :

ـ « إذن لا بد أنه نغص حياة (كاترين) تمامًا .. »

تنهدت (كلاريس) ناظرة للسقف ، وقالت :

ـ « كما لك أن تتصورى .. كان يعايرها بأنها أقل شأنًا من الحيوانات ، التى تلد بسهولة مواليد أصحاء طيلة الوقت .. وقال : إنه من حقه أن يتخلص منها .. لقد كنا نسمع هذا الكلام بوضوح تام دون مكبّر صوت ؛ لأن (هنرى الثامن) لم يسمع عن اختراع اسمه الهمس ..

« لكنه لم يتخلص منها بالسرعة التى وعد بها ، لأنه كان بحاجة إلى سلطان وقوة أبيها ملك أسبانيا ، وذلك تحت حكم البابا (ليو العاشر) الذى جعل من (إنجلترا) و (أسبانيا) حلفا ضد فرنسا ..

« على كل حال .. رزقت (كاترين) فى عام ١٥١٦ بطفل سليم حىّ لكنه أنثى هى الأميرة (مارى) ..

« وكانت هذه هى النهاية بالنسبة لعلاقتها مع (هنرى الثامن) .. وبدأ الرجل يفتش عن طريقة للخلاص منها ، ويفتش عن أخرى ..

« وأنت هى الأخرى يا عزيزتى ! »

★ ★ ★

٣ ـ الزواج .. الطلاق .. الزواج ..

كانت الأمور تزداد سوءًا باستمرار بالنسبة لـ (عبير) ..

فالمصيبة هى أن (هنرى الثامن) متيّم بهواها ..

كانت (آن بولين) غادة حسناء فى التاسعة عشرة من عمرها ، نصفها ـ النصف الأيمن غالبًا ـ فرنسى من ناحية الأب ؛ والنصف الثانى ينتمى لأسرة إنجليزية عريقة حقًا ..

إن كلمة وصيفة تختلف عن كلمة خادمة بالتأكيد ، بل هى وضع اجتماعى لا بأس به .. وسرعان ما برز دور (آن بولين) واضحًا متألقًا فى البلاط الإنجليزى ..

ويقول من عرف (آن بولين) إنها لم تكن جميلة .. لكنها تمتاز بالرشاقة ، وخفة الحركة مع الأناقة والجاذبية ، وهو نفس ما قالوه عن (كليوباترا) وعن (ماتاهارى) وسواهن ..

وكان (هنرى الثامن) يزور زوجته فى غرفتها ،

فيرى عندها تلك الوصيفة الساحرة جالسة على الأرض . وقد نثرت ثوبها حولها حتى بدت كأنما تخرج جذعها من زهرة طافية على الماء ..

وكان يصغى فى اهتمام مبالغ فيه إلى كلمات الوصيفة ..

كانت المشكلة هنا هى : لو قادته خطواته إلى تطليق الملكة (كاترين) والزواج من الوصيفة ، فمعنى هذا أن يفتح على نفسه بوابات الجحيم ..

أولا : سيصطدم مع أهل (كاترين) الأقوياء ، وهم ليسوا بلطجية أو قطاع طريق بل أسوأ .. إنهم ملوك أسبانيا أقوى دولة فى العالم وقتها ..

ثانيا : سيصطدم بالبابا فى (روما) .. أعلى سلطة فى العالم المسيحى .. لكن (هنرى الثامن) كان من الطراز الذى إذا انتوى عمل شىء فإنه يفعله مهما كان الثمن ..

★ ★ ★

جلست (عبير) ترمق الحفل بعقل نصف واع ..

كانت فى مقصورة الملكة ، لا يغيب عنها العذاب المقيم الذى تشعر به تلك الجالسة وراءها ..

وأمامها فى الحلبة كان استعراض من استعراضات

المبارزة ، التى كان (هنرى الثامن) يهيم بها حبا ..

على حصان أبيض مدرع مخيف الشكل ، يركب (هنرى) وضخامته تفوق ضخامة الحصان الذى يكاد يلفظ أنفاسه إرهاقًا ..

والحقيقة هى أن (هنرى) كان يستبدل ثلاثة أو أربعة خيول فى كل مرة .. واللعبة هنا هى أن يصطدم فارسان بأعنف قوة ممكنة ، ويحاول كل منهما أن يوقع الآخر على الأرض ..

وكان حجم (هنرى) كفيلا بأن يجعل هذا نوعًا من الانتحار .. ولا غرابة فى أنه كان يكسب هذه المبارزة باستمرار ..

هتفت (كلاريس) مفتونة وهى تحرك مروحتها :

- « تأملى ! ما أجمله وما ألطفه ! »

سألتها (عبير) فى شىء من الغباء :

- « عم تتحدثين ؟ عن الحصان ؟ »

- « بل (هنرى الثامن) يا حمقاء .. »

أعادت (عبير) تأمله باحثة عن شىء واحد جميل أو لطيف فلم تجد .. ربما كانت (كلاريس) بلهاء ، وربما كانت هذه هى مقاييس الجمال فى هذا القرن ، وربما كانت هالة الحكم تضفى هيبتها على الرجل ..

فى ذات الوقت ـ فى الحلبة ـ دوّت أصوات الصدام .. جبلان من اللحم يصطدمان بأعتى قوة ..

وفى اللحظة التالية طار منافس (هنرى) ـ السير شىء ما ـ فى الهواء ، ليسقط كجوال البطاطس على الأرض ..

قالت (كلاريس) وقد ازدادت سرعة مروحتها :

ـ « هل ترين ؟ إنه ملك ألعاب الفروسية .. أنت لم تريه منذ أعوام حين كان فى ذروة جماله وأناقته .. »

وكانت (عبير) تعرف ولع (هنرى الثامن) بالتأنق فى الثياب ، وارتداء الذهب والمجوهرات ، والتضمخ بالعطور الفاغمة القوية ، التى تسبقه قبل أن يصل بميل ، وتتقهقر بعده بميل ..

لكن الداء العضال الذى أصابه كان داء بلا علاج .. وقد أدى هذا إلى قروح شديدة فى ساقه اليمنى ، لم تكن رائحتها مما يسرّ النفوس ..

كما أن داء النقرس ـ داء الإفراط فى الملذات ـ قد هاجمه بشراسة وقسوة ، وكان يصرخ أحيانًا مولولاً من ألم ساقه أو ذلك الانفجار فى إصبع قدمه ..

أورثه المرض خلجة فى جفونه ، جعلته لا يستطيع تثبيت عينه فى عينك ، كما أورثه مزاجًا عصبيًا ناريًا ، ينفجر فى أية لحظة فى أى واحد ..

لكن (هنرى) ـ برغم هذا ـ كان قويًا مليئًا بالحيوية .. وها هو ذا الدليل فى الحلبة التى صرع فيها ثلاثة فرسان ..

ورأته (عبير) يترجل من فوق حصانه الرابع .. فيمشى فى تؤدة نحو المقصورة ودروعه تصدر رنينا ..

وأمام المقصورة صاح بصوته الشبيه بالخوار :

ـ « أنا (هنرى الثامن) ملك (إنجلترا) قد قهرت كل خصومى، وإننى لأعلن نفسى فارس (إنجلترا) الأول.. »

تعالى الهتاف والتصفيق ..

وكان أكثر المتحمسين (كرومويل) و(كلاريس) طبعًا .. فمن يجرؤ على إبداء معارضته ها هنا ؟

ثم ـ دون حيطة ـ تقدّم أمام (عبير) ، فانحنى وعيناه لا تكفان عن الاختلاج ، وقال :

ـ « أهدى هذا النصر للجميلة (آن بولين) ! »

كان هذا وقحًا خاصة أمام (كاترين) .. لكن ـ كالعادة ـ تعالى الهتاف والتصفيق و (مرحى) .. ورأت (عبير) أن النساء جميعًا يكرهنها كالطاعون .. هذا طبيعى ..

الآن صار البلاط الإنجليزى كله على علم بأن (هنرى

الثامن) قد اختار (آن بولين) لتكون زوجته الثانية ..

ولكن كيف يتخلص من (كاترين) ؟

لم تكن هناك مشكلة .. كل ما عليه هو أن يطلقها وأن يجد النص القانونى والدينى الملائم لهذا ، ثم ينفيها إلى دار نائية سحيقة فى العاصمة .. ثم إلى دار ثانية فثالثة ..

فى النهاية مرضت (كاترين) مرضًا عضالا .. وماتت كسيرة الفؤاد محطمة الروح ..

ومن المؤرخين من يزعم أن (هنرى الثامن) أرسل من يدسّ لها السمّ .. وهى تخرصات ، لكننا مستعدون لتصديقها ..

وفى اليوم التالى لوفاة (كاترين) ؛ كان (هنرى الثامن) يطلب يد (آن بولين) للزواج ....

★ ★ ★

عند منتصف الليل ، سمعت دقات على باب مخدعها .. فحملت الشمعة ووقفت وراء الباب تصغى ، ثم تساءلت :

ـ « من ؟ »

جاءها صوته الملول المميز يقول :

ـ « من سواى ؟ المرشد طبعًا .. »

تنهدت الصعداء وأزاحت مزلاج الباب ، وتذكرت وقتها ما تقوله (فيروز) حين نصحتها أمها بعدم فتح الباب لأحد : « إنت مش حدا ولا إنت العدا .. » بالفعل ليس المرشد أحدا .. إنه وليد خيالها الصاخب الذى لا يهمد أبدًا ..

دخل المرشد الغرفة .. فقال وهو يداعب قلمه :

ـ « تك تتك ! كيف حال الملكة القادمة لإنجلترا ؟ »

فى سأم قالت :

ـ « على جثتى ! »

وأردفت متقززة :

ـ « كيف يحتملون رائحة هذا الـ (هنرى) ، وكيف يطيقون شراهته فى الطعام ؟ إن فرسان الأحلام غريبو المظهر نوعًا فى هذا العصر .. »

ابتسم وقال وهو يتناول إجاصة ليلوكها :

ـ « كرراش ! إن الرجل مصاب بقروح لا تشفى .. هذا هو سر الرائحة .. ولهذا يسكب على نفسه زجاجتى عطر كل يوم .. على كل حال الرجل برجولته وجيبه .. وفى مصر يقولون (ظلّ رجل ولا ظلّ حائط) .. »

أضافت لتنهى كلامه :

ـ « نعم .. نعم .. وأمى كانت تقول الشىء ذاته ..

لكنى لم أطلب الزواج قط ... »

- « للأسف أنت مرغمة عليه .. كرانش ! »

والقى بما تبقى من ثمرة الكمثرى فى الطبق . وقال :

- « لا يمكنك الهرب من الكاردينال (ولسى) و(كروموبل) . وكل من لا يريدون سوى رضا عظمته ..

« وهنا يجب أن أقول شيئا : التاريخ نفسه يقول : إن (آن بولين) كانت أول الساعين لهذه الزيجة ، وقد نصبت حبالها حول (هنرى الثامن) من اللحظة الأولى .. وسرعان ما سقط الأحمق فى الفخ ..

« سيقول الإنجليز فيما بعد إن بركات الملكة البائسة (كاترين) هى التى ستجعل نهايتك بهذه الشناعة ! »

شناعة ؟ عم يتحدث هذا المرشد بالضبط ؟

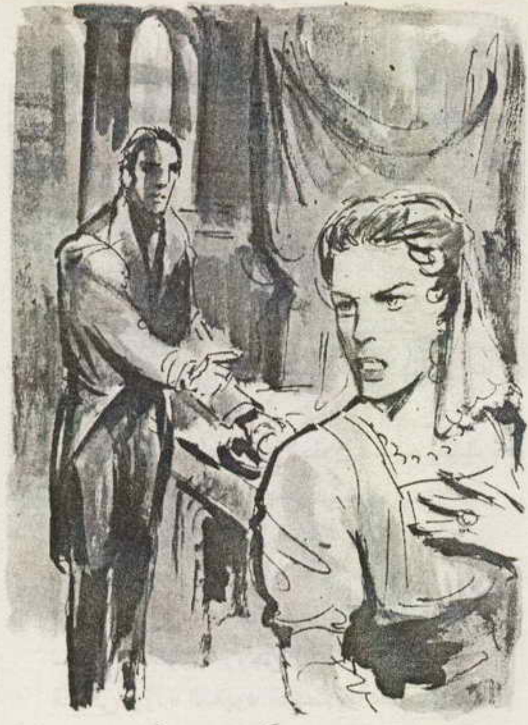
سألته وقد بدأت تهتم :

- « لحظة .. ما هى تلك النهاية الشنيعة ؟ »

تثاءب وقال وهو يعيد القلم إلى جيب سترته :

- « إعدامك طبعا ! سيقطع الملك رقبتك فى برج (لندن) فى حفل شعبى بهيج ! »

★ ★ ★



وألقى بما تبقى من ثمرة الكمثرى فى الطبق ، وقال :
- لا يمكنك الهرب من الكاردينال (ولسى) و(كروموبل) .

٤ - رجل لكل العصور ..

مذعورة هبّت .. كان الظلام كثيفًا من الطراز الذى يشعرك بالحرّ والاختناق ، ثم جاءت الشمعة لتزيد الأمر سوءًا ، ثم جاءت كلمات الرجل لتجعل الأمر أقرب للكابوس ..

جاهدت حتى التقطت أنفاسها ، ثم هتفت :

- « لحظة .. إن الرجل يوشك على الجنون ما لم يتزوجنى .. »

- « ولسوف يوشك على الجنون ما لم يقتلك بعد ذلك .. »

- « وما هى جريرتى ؟ »

- « الخيانة الزوجية طبعًا ! »

أشارت إلى صدرها بسبابتها غير مصدّقة :

- « أنا ؟ أخون ؟ زوجى ؟ »

قال فى بروده المعهود المحطم للأعصاب :

- « لن تفعلى طبعًا ، ولم تفعلها (آن بولين)

كذلك .. لكنها الحجة الوحيدة التى وجدها (هنرى الثامن) .. ما كان ليجد طريقة أفضل للخلاص من الزوجة التى ملّها سوى هذه ، وبالطبع كانت الآنسة (جين سيمور) بانتظاره لتكون زوجته الثالثة .. »

- « ثالثة ؟ »

- « بل ورابعة .. وخامسة وسادسة .. هذا الرجل هو - دون تزويق - (شهريار) الإنجليز الذى يتزوج كل فتاة ليلة واحدة ، ثم يقطع (مسرور) رأسها بسيفه فى الصباح .. »

- « وأنت تريدنى أن أجتاز هذه المغامرة ؟ »

- « لم لا ؟ إنها مغامرة على كل حال .. حاولى أن تفرّى بعنقك من سيفه .. »

- « وكيف ؟ »

- « حاولى ألا يملّك ! »

ثم هزّ رأسه فى شك :

- « وإن كان هذا عسيرًا ! »

- « لأننى مملة بطبعى .. »

- « بل لأن طبيعة هذا الرجل متقلّبة بشكل لا يصدّق ، وقد أورثه المرض عدم استقرار شديد فى نفسيته .. لكن حاولى .. »

وكالعادة هزّ رأسه محييًا ، واتجه إلى الباب ..

ـ « هل سأراك ثانية ؟ »

ـ طبعًا .. فى نهاية القصة .. لكن قطع الرأس بالسيف تجربة غير محببة ، ولربما أودت بحياتك فعلا .. حياة (عبير) لا حياة (آن بولين) .. »

برغم كل شىء سرّها أنه كفّ عن اعتبار (عبير) لا وجود لها ؛ مجرد قصة أخرى من قصص (فانتازيا) ..

قالت له ملوّحة بيدها :

ـ « إلى لقاء إذن .. »

وأغلقت الرتاج من ورائه ..

★ ★ ★

وقف النبلاء الإنجليز فى البلاط يتهامسون ، حين برز الكاردينال (ولسى) ـ أخطر الساسة فى هذا العصر ـ فساد صمت رهيب ..

قال (ولسى) بصوت حاول أن يكون مؤثرًا دراميًا :

ـ « مرحبًا بكم يا سادة (إنجلترا) ونبلاءها فى البلاط .. الموضوع كما تعلمون أن عاهل (إنجلترا) قد قرر أن يتزوج .. كلكم تعرفون هذا .. ولا شك أنكم ترحبون به ..

تعالت أصوات المعرفة وأصوات الترحيب .. لكن

الرجل لم يكن ممن ينخدعون بسهولة بالنفاق السطحى .. كان بحاجة لنفاق عملى ..

عاد يقول ضاغطا على كلماته :

ـ « ثمة إشاعات تزعم أن هناك إشاعات تزعم أن هناك إشاعات تزعم أن هناك من لا يرحبون بهذا الزواج .. تصوروا هذا ! »

تبادل النبلاء النظرات الذاهلة ، وتحسس بعضهم صدره فى جزع كأنما يسمع هرطقة مريعة ، وشهق آخرون غير مصدقين ...

ـ « نعم .. بل ويقال ـ كذلك ـ إن هذه الزيجة غير شرعية ، والطلاق الذى تمّ بين الملك وزوجته السابقة هو طلاق غير صحيح ، ويقال ـ كذلك ـ إن البابا غير موافق .. »

ـ « يا للافتراء ! »

ـ « أية وقاحة ! »

هزّ الكاردينال رأسه بما معناه (لن تلعبوها علىّ) وقال :

ـ « لهذا جلبناكم هنا حتى تقسموا بالولاء للملك (هنرى) ، ولهذا الزواج المبارك .. »

من شرفة عالية متوارية جلست (عبير) ترمق

المشهد جوار (هنرى) ، وكانت الستائر تحول دون أن يراهما الموجودون فى القاعة ..

وكانت تسمع أنفاس (هنرى) المتلاحقة ، وصوت قضمه لأسنانه ..

إن الرجل خائف ! هذا غريب حقًا ! حتى هذا الدكتاتور الطاغية يهمه رأى الناس فيه .. لو كانت أكثر حكمة لفكرت فى أن الشرّ ليس بالقوة التى يبدو عليها ، وحتى رأى الذبابة يعمل له الطغاة حسابًا ..

وفى الردهة أسفلها واصل الكاردينال (ولسى) استقصاء الآراء ، فكان الواحد من النبلاء أو رجال الحكومة يقف أمامه ، فيسأله بحروف واضحة :

- « هل توافق على زواج (هنرى الثامن) ملكنا من الآنسة (آن بولين) ، وتباركه وتعضده ؟ »

فيقول النبيل وهو يتحاشى نظرات الكاردينال القوية :

- « أنا أفعل .. وأقسم على هذا بالكتاب المقدس .. »

ويجىء دور التالى ..

عملية مملة جدًا ، وقد بدأت (عبير) تتثاءب بعد ربع ساعة من التكرار الرتيب .. نعم هى ملول جدًا ، ولو كانت أقل مللاً لتفوقت فى المدرسة ونبغت فى كل شىء .

هنا حدث شىء حطم هذه الرتابة ..

كان الدور قد جاء على الكهل الذى عرفنا أن اسمه السير (توماس مور) .. مهيبًا فى وقار كهولته .. أنيقًا فى عباءته .. رافعًا رأسه فى شموخ كنسر يقف على صخرة فى الصحراء .. ينتظر دوره فى القسم .

سأله الكاردينال بنفس اللهجة :

- « هل توافق على زواج (هنرى الثامن) ملكنا من الآنسة (آن بولين) ، وتباركه وتعضده ؟ »

تحاشى الرجل نظرات الكاردينال ، ومطّ قامته أكثر وقال :

- « إننى أدين بالولاء والطاعة لمليكى (هنرى الثامن) ملك إنجلترا .. الله .. الملك .. الوطن .. »

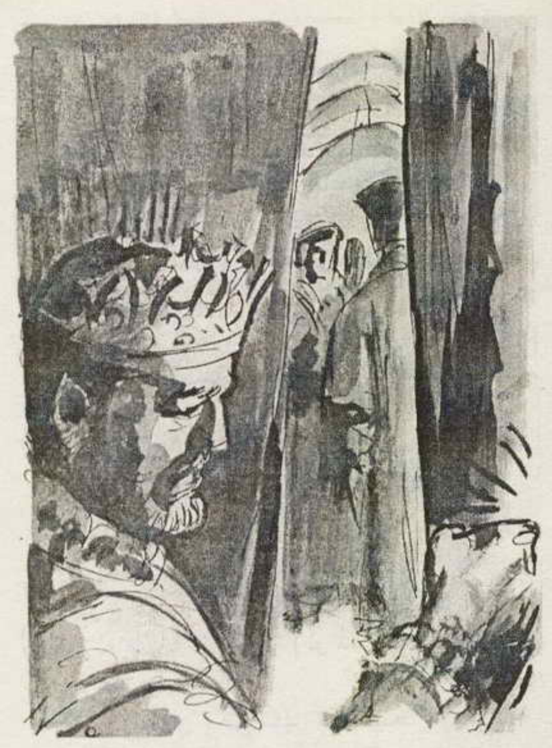
بدا الارتباك على الكاردينال ، وتبادل النظرات مع من حوله ، ثم عاد يسأل :

- « سير (توماس).. هذه ليست الإجابة التى أريد ..»

فى (استعباط) صريح عاد سير (توماس) يقول :

- « هل تعترض يا سيدى الكاردينال على خضوعى للملك ؟ »

- « نعم يا سيدى .. هذا صواب .. لكنه حقّ فى غير موضعه .. كأننى أطلب منك مالاً فتقول لى :



كوّر قبضته ووجّه لكمة عاتية آلمت الجدار ألمًا شديدًا ..

الشمس تشرق من الشرق .. هذا صواب .. لا أحد ينكره .. ولكن ما دوره هاهنا ؟ »

ـ « هذا هو القسم الذى أستطيع منحك إياه يا سيدى الكاردينال .. »

ـ « الخسيس ! »

هذه الأخيرة كانت من (هنرى الثامن) نفسه فى مخبئه ، إذ كوّر قبضته ووجّه لكمة عاتية آلمت الجدار ألمًا شديدًا .. لم يكن يحتمل المعارضة أو الجدال ...

كان يحبّ (توماس مور) ويعتبره من ألمع عقول إنجلترا وأنزه رجالها .. لكنه كان يعرف مدى ولع ـ ذلك الخسيس ـ بالألعاب اللفظية المنطقية التى تحيل الحياة جحيمًا ..

وكانت المناقشة قد انتهت فى الرواق ؛ لأن الكلّ سمع صرخة الملك الحانقة ، فتجمّد الجميع حيث كانوا ، وقد فطنوا للحقيقة المرعبة : إن الملك كان يتابع الأحاديث من بدايتها ..

وفى اللحظة التالية وثب (هنرى الثامن) من الشرفة ، ليهبط برشاقة التياتل على الدرج .. وراح يتدحرج فيه ، وكرشه الفخيم يهتز مع كل خطوة .. عيناه تقذفان قنابل (المورتار) على الجميع ..

صاح ملوحًا بذراعيه :
ـ « فلتنته هذه المهزلة ! انصراف ! »
ـ كان هذا ما تمنوا .. فلو أن لهم ذيولا لوضعوها بين أفخاذهم وفروا .. ودون أن يرفع عينيه لملم السير (توماس مور) عباءته لينصرف معهم ، لكن (هنرى الثامن) صاح بصوت نارى :
ـ « سير (توماس) ! ما معنى رفضك لهذه الزيجة ؟ »
ابتلع الكهل ريقه ، وللمرة الأولى رفع عينيه الصادقتين نحو الملك :
ـ « أنا لم أرفضها يا مولاى .. أنا استعمل حقى فى الصمت .. »
ـ « الصمت معناه الرفض .. »
ـ « ولعل معناه القبول يا سيدى .. »
ثم تسلل فى بطء مهذب كى يفر من هذا المكان الخطر .
ولم يحاول (هنرى) استبقاءه أكثر ..
ويهرع الثعلب (كرومويل) يهدئ من خاطر مولاه ، ويقول له أشياء على غرار (لو أمرت لفتحنا كرشه أو انتزعنا عينيه) ..
فينظر (هنرى) إلى الكهل الذى يبتعد ، ويقول :
ـ « لا .. ليس سير (توماس).. إنه رجل شريف.. »

وهى كلمة واضحة المعنى .. فهو يعرف جيدا أن الآخرين ليسوا شرفاء .. المشكلة هى أنه يعرف ما اقترفه فى حق (كاترين) .. لكنه بحاجة إلى من يقول له : مرحى ! لقد فعلت الصواب بعينه .. وهذا لن يكون كافيًا لإسكات ضميره الناعس وسط تلافيف مخه المكتنز ..
لكن ـ يا للكارثة ـ ها هو ذا ضمير آخر يمشى على قدمين يقول له : إنه ليس محقًا .. إنه ظالم .. وهذا الضمير هو ـ يا للكارثة الأخرى ـ سير (توماس مور) الرجل الذى لا يكذب ولا ينافق ..
قال لـ (كرومويل) وهو يستدير منصرفًا :
ـ « تأكد من مغادرته لـ (لندن) بعض الوقت .. إنه بحاجة إلى بضعة أيام يقضيها فى أملاكه الريفية .. »
لم يكن يريد ضمائر فى فترة الزواج على الأقل ....

★ ★ ★

وتم الزواج الأسطورى ..
هتافات العامة فى الشوارع ، والمآدب التى سال فيها الدم ـ دم الطيور طبعا ـ والخمر أنهارا .. ودقات أجراس الكاتدرائية ..
إن (عبير) جربت أشياء كثيرة فى (فانتازيا) لكنها لم تكن قط ملكة ، وقد أنساها الانبهار الذى

يصل لاحتباس الأنفاس ، أنها تتزوج هذا الشىء البدين نارى المزاج المدعو (هنرى الثامن) ..

فى السماء اشتعلت الألعاب النارية ..

وفى مقر البابا كانت هناك ألعاب نارية من نوع آخر .. فقد ثار ثورة عارمة ولعن (هنرى) ودعا عليه بالعقم والخراب ..

وفى أسبانيا كانت الألعاب النارية أكثر حدة ..

لا بد أن الملكة (إيزابلا) ضربت بكفها على صدرها ، وصاحت :

ـ « يا ندامة ! يطلق ابنتى ويتزوج وصيفتها ! أى أمان للرجال بعد هذا ؟ »

ـ أما (فردناند) الأب المكلوم ، فلا بد أنه راح يطلق السباب الأسبانى المموسق ، ثم لوّح بسيفه وقال :

ـ « ليدفعن الوغد وزوجته الجديدة الثمن .. لن يحب كثيرًا الجيش الذى سأجرده لاحتلال (إنجلترا) ! »

كانت الدوائر تضيق حول (عبير) ..

لكن الخطر الرئيسى كان من زوجها نفسه ..

★ ★ ★

٥ـ رجل لكل العصور ..

(كعادتنا فى تكرار أسماء الفصول)

زوجان سعيدان ينعمان بلحظات رومانسية ..

خطر لها هذا وهى تتأمل الموقف .. المشكلة هنا هى أن أحد الزوجين بدين كوحيد القرن والآخر نحيل كالسحلية ..

لكن كل شىء يوحى بالسعادة ، بينما المركب يشق طريقه ببطء فى النهر ، والمشاعل فى كل صوب تغمر صفحة الماء بضوئها ، وفوق ظهر المركب يوجد مكان لمجلس عامر يجلس فيه عازفو الموسيقا ، والمطربات ومهرج البلاط ..

بقعة من الحلم تشق الظلام راسمة انعكاس ألف حلم آخر ..

ويمسك (هنرى) بلفافة ورق طولها ـ فى الغالب ـ عشرون مترًا ، وهى قصيدته الأخيرة .. ويبدأ فى

تلاوة مقاطعها ، وهو يطوح رأسه يمينا ويسارا فى انتشاء ..

ـ « هو ذا ترنيم سادة (الأوليمب) ..

فى عليائهم يرمقون (أوليسيوس) فى إعجاب .

ممزوج بشىء من حسد .. »

هنا يصدر أحد العازفين نغمة قصيرة على معزفه ..

كاد النعاس والملل يغلقان عينيها غلقا ، لكنها تحاملت ورسمت أمارات الانتشاء على وجهها ..

مشكلة الشعراء الخالدة هى أنهم كالديناميت .. تكفى لمسة للواحد منهم حتى ينفجر ويستحيل منعه ..

هنا أحست أن حركة التجديف قد تباطأت نوعا ، وأن القارب يوشك على التوقف ..

ها هم الخدم أولاء يلقون بحبالهم ، وها هو ذا القارب يدنو من الشاطئ ليرسو ..

سألها (هنرى) وهو يطوى معلقته إياها :

ـ « ما رأيك ؟ إنها (بالاد) جميلة لكنها أرقى لغة .. »

ابتسمت فى فتور ، فلم يكن رأيها جديرا بمصارحة الملوك به ..

وضعوا (معدية) خشبية صغيرة كى تسمح لها بالنزول إلى الشاطئ دون أن تبتل قدماها الصغيرتان ، وتبعها (هنرى) .. بالتأكيد فعل لأنها سمعت صوت الخشب ينذر بتهشمه ..

وعلى الشاطئ وقف ذلك الخيال المميز لكهل وقور يرتدى عباءة ، وجواره كان كلب صغير يتواثب ، وامرأتان يبدو أن إحداهما امرأته والأخرى ابنته .. وكالعادة ثنت كل منهما ساقيها فى رشاقة جديرة بزيارة الملك لهذا المنزل الريفى .

تقدم السير (توماس مور) فى أدب نحو الملك ، فانحنى محييا وقال كلمات عن الرضا السامى الذى جعل منزله المتواضع أهلا لاستضافة الملوك ..

هزّ الملك يده فى ضجر أن كفّ عن هذا الهراء ، ثم سأل بصوته الجهورى وطريقته النارية :

ـ « هل لديك شراب هنا يا سير (توماس) ؟ »

ـ « إن كل ما ...... »

ـ فلم يتركه يستكمل كلامه ، وشق طريقه كالإعصار إلى المنزل الريفى الجميل .. وعوى الكلب فى إثره فاكتفى بتوجيه ركلة جانبية صائبة إلى مؤخرته ..

لم ينس سير (توماس) أن يلثم يد (آن) / (عبير) فى رشاقة .. ثم رفع كفها بين أنامله يصطحبها إلى المنزل ، بحركة أقرب إلى رقص الباليه ..

- « أما زلت رافضا لفكرة وجودى ؟ »

- سألته وهى تمشى جواره فقال فى كياسة :

- « ليس لوجودك يا سيدتى .. بل للظروف .. »

★ ★ ★

كان الطعام شهيًا والمأدبة تنمّ عن كرم حاتمى لو كان هؤلاء الإنجليز يعرفون (حاتم الطائى) ..

وراق لـ (عبير) الجو الخالى من التكلف ، ونشاط نساء الدار وبراعتهن ، وعدم اكتفائهن بإصدار الأوامر للخدم ..

أما (هنرى) فقد كان على طبيعته أكثر من اللازم : أكل كالثيران ، ثم تثاءب ونام كالدببة فى ذات الموضع ..

تأملته (عبير) فى رهبة وقد تدلى رأسه العملاق على صدره ، وراح شخيره يتعالى ..

من الواضح أنه لن يسمع ما سيقال ..

مالت على سير (توماس) وسألته :

- « والآن .. هل لى أن أظفر بتفسير ؟ »

- لأى شىء ؟ »

- « لكراهيتك لى .. »

قال فى كياسة وهو يتناول السكين وتفاحة :

- « أنا رجل قانون يا سيدتى ، ورجل القانون لا يكره الناس لأسباب شخصية .. فلا شىء يضايقه سوى مخالفة الشريعة ، ولا شىء يسعده سوى الالتزام بها .. أنا لا أحمل ضدك ضغائن ما .. »

تأملت النائم فى حذر ، وعادت تسأل :

- « إذن لماذا ترفض هذا الزواج ؟ »

كان قد انتهى من تقشير التفاحة ، فوضعها فى طبق أمامها ، ثم تناول تفاحة أخرى .. قناع الحكمة التى تأبى مزيدًا من الكلام على وجهه ، قال لها وهو يقشر التفاحة :

- « لم أرفضه ولم أقبله .. إننى صامت .. كلى تفاحتك ! »

- شكرًا .. كرونش كرونش ! لكن الجميع يعرف معنى صمتك .. »

- « هذه مشكلتهم لا مشكلتى .. »

- « ولكن .. كرونش كرونش .. لماذا لا تؤيد الزواج صراحة ؟ »

ارتفعت نحوها عيناه الرماديتان الباردتان النبيلتان اللتان تتهمان دون كلمات ، وقال فى رزانة :

ـ « لأنه غير صحيح قانونا .. وطلاقه من (كاترين) غير صحيح .. لقد لوى الملك عنق القانون على غرار ذلك الإغريقى القديم (بروكر ستيز) الذى كان يملك سريرًا خشبيًا ، فكان يعمد إلى قطع أرجل ضيوفه أو مط أجسادهم حتى تلائم السرير[*] .. لكنى لن أعلن رأيى ما دام أحد لم يطلب منى ذلك .. »

ـ وقدم لها التفاحة الثانية ، فالتهمتها فى جشع جعله يبتسم ..

* * *

وحين صحا (هنرى الثامن) من نومه ، كان الشبع والراحة قد منحاه عزيمة لا تتراجع ..

قال لـ (توماس مور) وهو يمد يده ليقشر إصبع موز :

ـ « سير (توماس) .. كان الهدف الأول لى من هذه الزيارة هو أن أجعلك تعلن عن رأيك فى زواجى .. »

(*) يستعملون لفظ الـ (بروكرستيزية) للدلالة على لى عنق الحقائق أو تجاهلها .

فى غموض ابتسم سير (توماس) وقال :

ـ « إن (إنجلترا) كلها تؤيدك يا مولاى .. فما أهمية رأى عبد فقير مثلى ؟ »

ـ « لأنك رجل شريف .. ورأيك جوهرى بالنسبة لى .. »

هز (توماس مور) رأسه ، وقال :

ـ « حقًا أفضل أن أظل صامتًا .. »

ـ « ستندم ! »

ـ « بل أنا واثق من عدالتكم .. »

نظر له (هنرى) بعينين ناريتين ، وبدا أنه يمنع نفسه من الانفجار ، ثم نهض دون كلمة مغادرا قاعة الطعام ..

مناشدة همست (عبير) فى أذن (توماس مور) :

ـ « ما سر تصلب الرأى هذا ؟ إن هى إلا كلمات .. كذبة بيضاء تنقذ بها نفسك من غضبة مجنونة .. »

ازدادت التجاعيد فى وجهه ، وغمغم :

ـ « كلمات ! الكون نفسه مخلوق بالكلمة .. إن الكلمة لها ثمن غال أو هكذا ينبغى أن تكون .. الإنسان كلمة ، فلو استعملها كما يستعمل حذاءه لما تبقى له شىء

من إنسانيته .. ربما لم يبال الآخرون بأهمية الكلمة ، لكن سير (توماس) لن يفعل مثلهم .. »

ومط عنقه لأعلى فى كبرياء قائلا :

- « أنا أرفض أن أعلن شيئا لا أعتقد به .. »

هنا دوى زئير (هنرى الثامن) من الخارج يدعو (آن) للحاق به .. وبدا واضحا أن الملك لن يبيت ليلته فى دار السير (توماس) ..

وفى الخارج على ضوء المشاعل المنعكسة على صفحة الماء ، بدأ القارب يستعد للرحيل ..

على حين وقف سير (توماس) مع زوجته وابنته يرمق المشهد ، ورفع يده مودعا الملك .. لكن هذا استفزّ (هنرى) أكثر ...

- « هذا الرجل يجب أن يموت ! »

قالها (هنرى) من بين أسنانه ..

ارتجفت (عبير) للفكرة ، وقالت :

- « دعه وشأنه .. رأيه لن يقدم أو يؤخر .. »

- « أنا أمقت المعارضة ! »

- قالها فى غلّ حتى إن الخدم جميعا أجفلوا ، وأردف :

- « .. أمقت أية طاعة غير عمياء .. إننى شخصية

غير ناضجة متصلبة الرأى .. شخصية فمية كما سيصفنى علماء النفس يوما ما .. وهذا الـ (مور) يقتلنى قتلا ! »

ثم صرخ فى الخدم المتصلبين :

- « ماذا تنتظرون يا حمقى ؟ نحن عائدون إلى (لندن) ! »

وبدأت المجاديف تتحرك .. صوت ضرباتها الرفيق للماء يتعالى ..

وسمعته (عبير) يهمس من بين أسنانه :

- « (كرومويل) ! يا له من ذنب ! سيجد ما يدين (مور) حتما ! »

★ ★ ★

٦ - حاكمــوه وأعدمــوه ..

فيما بعد تـم اعتقـال سـير (تومـاس مـور) بتهمـة التمرد ضد الملك ..

وفى التحقيق السريع الذى أجراه معه (كرومويل) ، ظل (مـور) محتفظا بصمتـه وإصـراره علـى عـدم إعلان رأيه فى الزيجة ..

يقول له (كرومويل) بلهجة ذات معنى :

- « إن لدينا وسائل تجعلك تتكلم .. »

فيقول (مور) فى كبرياء أرستقراطى :

- « هأنتذا تهدد كسكير على رصيف ميناء ! »

- « إذن قل لى كيف أهددك ؟ »

- « هددنى كمدع عام للدولة .. هددنى بالقانون ! »

- « حسن .. وأنا أهددك بالقانون .. »

فيقول (مور) فى راحة :

- « إذن فلا شىء يهددنى ! »

وهكذا - وعلى هذا المنـوال المحطم للأعصـاب -

يواصل سير (توماس) ألعابه اللفظية المنطقية مع المحققين .. وكان دائما قادرا على أن يفحمهم ، ويعود بهم من النهر ظمآنين لو صح التعبير ..

لكن أوامر (هنرى الثامن) غير قابلة للمناقشة ..

- « حاكموه وأعدموه ! »

فيتساءل سائل أحمق :

- « إذن لماذا نحاكمه أصلا ؟ »

- لأن العدالة يجب أن تأخذ مجراها يا أبله ! »

★ ★ ★

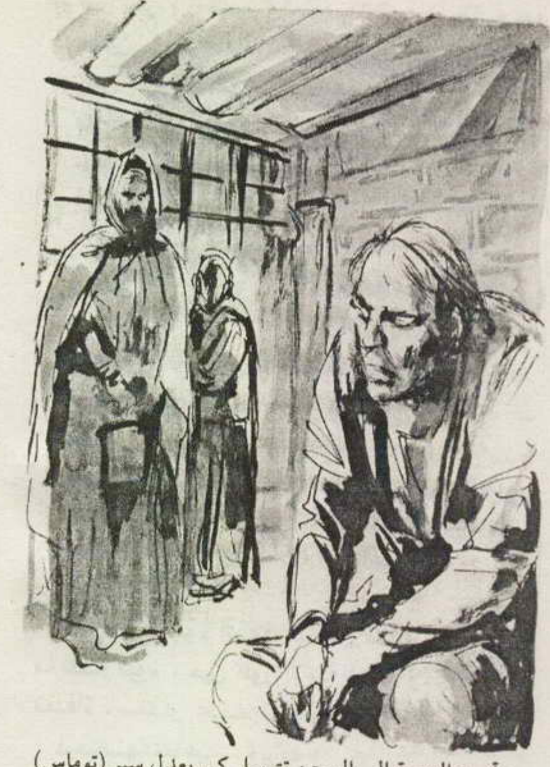
وتجىء الزوجة إلى السجن تتوسل كى يعدل سير (توماس) عن عناده .. كفاه بضع كلمات يلفظها عن غير اقتناع ..

ثم إنه صديق (هنرى الثامن) ، و(هنرى) يتمنى لو يعطيه فرصة كى يتراجع .. كى لا يفعل ما ينبغى أن يفعله ..

ومرارا تقول له :

- « سيأتى يوم أكرهك فيه من صميم قلبى على ما تفعله اليوم ، حين أكون أرملة أجلس وحدى جوار المدفأة ، سأتذكر عنادك اليوم وألعنك ! »

فيحتضنها مداعبا .. ويردد :



وتجيء الزوجة إلى السجن تتوسل كى يعدل سير (توماس) عن عناده . .

- « يا للوحش الذى تزوجته ! يا للوحش ! »
لكنها تعرف أفضل من أى واحدة أخرى حقيقة الرجل الذى قد تزوجته .. رجل يؤمن أن الكلمة أهم من الحياة ، والمبدأ أهم من الرفاهية .. لهذا لن يتراجع .. لن يتراجع أبدًا ..
يا للجنون !

★ ★ ★

فى ذلك الوقت من أوائل عام ١٥٣٣ ؛ لم تكن (عبير) / (آن) على ما يُرام .. فها هى ذى للمرة الثانية تخوض تلك التجربة الرهيبة : الحمل ..
صار مزاجها كالبحر وقت العاصفة ، وأحيانًا أكثر هدوءًا من بقعة الزيت فوق ماء نهر .. وصارت تشمئز من كل ما يؤكل ويُشرب ويُشمّ ويُلمس .. ثم بدأت تعانى شوق الحمل المجنون لشىء ما ..
ثم تبلور هذا (الوحم) فى صورته النهائية ، فصار شوقًا غامرًا إلى التفاح .. ولم يكن هذا مطلبًا عسيرًا بالنسبة لملك ..
وهنا تذكرت ابتسامة سير (توماس مور) الغامضة حين لاحظ أنها نسفت التفاحتين فى ثوان .. لقد فهم ..
وفى الآن نفسه ، لم يكن (هنرى الثامن) يخفى

فخره الشديد بمولوده المرتقب .. وقد قابل فى فرنسا السفير الأسبانى الذى كان مغتاظا لما حدث لابنة ملكه (كاترين) ..

قال السفير لـ (هنرى) معتمدا على حصانته الدبلوماسية :

ـ « اتق الله يا سيدى ، وراع شريعته .. »

كاد (هنرى) يفترس الرجل افتراسا ، لكنه لم يستطع بالضبط أن يفعل ذلك فى بلد أجنبى ومع سفير ..

لذا كوّر صدره للأمام ، وقال :

ـ « إن الله وضميرى يقرّان ما أفعل .. »

وهى عبارة فخور جدًا تذكرنا على الفور بكلمة (روكفلر) المليونير الأمريكى الشهيرة (إن رصيدى فى البنك لخير دليل على أن الله راض عما أفعله) !

كتم السفير الأسبانى ردوده البليغة ، وابتلع غيظه ..

أما بالنسبة لـ (آن) فقد كانت تلك أجمل أيام حياتها ، وهى تلعب دور الزوجة المدللة التى تجاب لها كل صغيرة وكبيرة بلا إبطاء .. صحيح أن الحمل تجربة قاسية ، لكن التدليل تجربة جميلة حقا .....

وتلتهم المزيد من التفاح ، وتنتظر ...

★ ★ ★

وكانت الولادة فى أكتوبر ..

ومن جديد تعيش (عبير) أوجاع الولادة ، مع تجربة أخرى هى الولادة فى القرن السادس عشر حيث كل شىء متسخ وملوث بالباكتريا ، وحيث يغسل الأطباء أيديهم بعد الجراحة لا قبلها ، وحيث تعتبر الولادة نشاطا استشهاديًا لا تنجو بعده سوى قليلات ..

وفيما بعد ستعرف (عبير) أن خليفتها على العرش (جين سيمور) ستقضى نحبها ، لأن (هنرى) سيرغمها على المشاركة فى حفلاته الصاخبة وهى بعد فى حمى النفاس ..

المهم أن الولادة تمت ..

لكن المولود كان أنثى !

أنثى اختاروا لها الاسم (اليزابث) ..

وفى هذه المرة تقبل (هنرى) الخبر فى اكتئاب وصمت عميقين ..

هذا هو ما يثير الذعر فى النفس ..

الصمت بدلا من الصراخ ، والاكتئاب بدلا من الغضب ..

والـ .. لا أدرى بالضبط .. بدلاً من الـ ...... لا أدرى كيف أعبر ..

★ ★ ★

فى الوقت ذاتــه يواجـه سـير (تومـاس مـور) محاكمته الشهيرة ، والتى خلدَها كثيرون فى أعمال أدبيـة ، وقدمهـا (بـول سكوفيلد) ببراعـة فـى فيلـم (رجل لكل العصور) من إخراج (فريد زينمان) ....

كان الرجل العظيم واهنا مفكك الأوصال ، وهو يدخل مصحوبا بحراسة ، مكبلا بالسلاسل الحديدية .. ليمثل أمـام هيئـة القضـاء الرهيبـة ، بشـعورها المسـتعارة وأروابها ونظراتها النارية ..

كـان غير قـادر علـى الوقــوف ، لـذا سـمحوا لـه بالجلوس ، وهو استثناء لو تعلمون عظيم ..

فخـــورا كالطـــاووس متربصـــا كالصـــقر يتقـــدم (كروموبل) كى يواجه السادة القضاة ..

بعد ما حيّاهم قال :

ـ « الأمر يتعلق برجل شريف .. أديب ومفكر هو مفخرة لإنجلترا .. لكنـه ـ فى أمر مهم حيوى ـ يصر على الصمت .. »

وبلهجة مسرحية كرّر آخر مقطع :

ـ « الصمت ! »

ثـم عقد كفيـه وراء ردفيـه ، وراح يـذرع القاعـة جيئة وذهابًا كأنما يكلم نفسه :

ـ « الصمت ! إن الصمت أنـواع .. تأمـل الجثـة الهامدةَ فى ركن الغرفةَ وقد استقرّ مقبض الخنجر فـى صدرها .. أصغ لهذه الجثة .. ماذا تسمع ؟ الصمت ! »

ومن جديد نظر للسقف وكررَها :

ـ « الصمت ! »

ثم أردف وهو يعود لذرع القاعة :

ـ « .. ولكن دعنا نر مثالا آخر .. ماذا عن الشاهد الذى رأى القاتل لكنه يصرّ على الصمت ؟ إن الصمت قد يتكلم أحيانا كما ترون .. »

وأشار إلى السير (توماس) الذى جلس يرمقه فى هدوء دون أدنى انفعال :

ـ « هو ذا سـير (تومـاس) يصـرّ علـى الصمـت فيما يخصّ زواج ملكنا (هنرى الثـامن) مـن السيدةَ (آن) .. لكن .. هل يوجد شخص فى (إنجلترا) كلها لا يعرف أو لا يعتقد أنه يعرف رأى سير (تومـاس) فى الموضوع كله ؟ »

فى برود قال (توماس مور) :

ـ « لو اعتقد الجميع فعلى هذه المحكمـة أن تـأخذ بالحقائق .. فقط بالحقائق .. »

ضربة أخرى لا بأس بها ..

هنا استدار (كرومويل) محنقًا نحو سير (توماس) وقال :

ـ « نحن فى لحظة الحقيقة .. يمكن للسير (توماس) أن يطلعنا على رأيه النهائى فى هذا الزواج ، أمام عدالة المحكمة .. »

ساد صمت رهيب ..

صمت من النوع الذى يتكلم كما قال (كرومويل) ..

أخيرًا دوّى صوت (توماس مور) الواهن المرتعش من المرض يقول :

ـ « يعلم الله أننى حاولت التزام الصمت قدر وسعى ، ولم أعلن قط عن محتوى ضميرى ، حتى أرغمونى على الكلام ..

« لقد طلبت منى المحكمة الموقرة أن أختصر .. ومختصرًا سأكون ..

« إن رأيى فى هذه الزيجة هى أنها .... »

ـ وساد مزيد من الصمت كأنما هذا ممكن .. بينما الرجل يفرغ جعبة أسراره :

ـ « .. هى أنها عمل يناقض كل الشرائع القانونية والسماوية .. فطلاق الملكة (كاترين) غير صحيح .. ودين السيدة (آن) لا يسمح لها بالزواج من ملك (إنجلترا) ، حتى لو ركز السلطة الدينية فى يده ..

« لقد جعلونا نقسم على ولائنا لخطيئة ..

« وفى لحظة كهذه يصير الصمت والرفض بالقلب هو أحكم سياسة ، أما إذا أرغمونا على الكلام فلن نقول إلا صدقًا ..

« إننى رجل ميّت .. أعرف أن كل شىء قد أعد لإعدامى .. لكننى أقول كلمتى الأخيرة التى لن أتراجع عنها : زواج (هنرى الثامن) من (آن بولين) باطل ! »

كان هذا أكثر من كاف .

ـ وابتسم (كرومويل) مذهولاً ، فهو لم يتوقع أن يكون الأمر بهذه البساطة .. كان ينتظر مراوغة أكثر وألعابًا لفظية أكثر .. لكن الرجل قدّم ببساطة أروع اعتراف ممكن ..

★ ★ ★

٧ـ إعدام فى البرج ..

وقف القضاة غير مصدقين هول ما يسمعون ..

استحال ذهولهم غضباً إزاء كل هذه الوقاحة الانتحارية ..

فى النهاية استطاع كبيرهم الكلام ، فقال لاهثاً :

ـ « سير (توماس) ! إنك قد قارفت الخيانة العظمى ، ولسوف تعدم غداً فى البرج عند الشروق .. »

وانصرفوا دون كلمة أخرى ..

★ ★ ★

تهرع (عبير) ملهوفة إلى برج (لندن) وهى تلملم أطراف ثوبها كى لا تتعثر .. ودموعها تعمى عينيها تماماً ..

يوقفها السجان الفظ برمحه الذى سد به الطريق ، لكنها تكشف النقاب عن وجهها فى صرامة :

ـ « هل تعرف من أنا ؟ »

ـ « لا ! »

بالطبع لم يكن يعرفها .. ففى زمن لا يوجد به تلفزيون ولا صحف يستحيل على الشعب معرفة شكل ملكته ، ما لم يرها فى موكب ما ..

أسقط فى يدها لولا أن سمعت صوتاً هادئاً يقول :

ـ « إنها ملكتك أيها المغفل ! »

استدارت لتجد الكاردينال (ولسى) يبتسم فى خبث ، فأجفلت ..

قال لها بلهجته التى تمط الكلمات :

ـ « دعينى أخمن يا مولاتى .. لقد جئت لزيارة سير (توماس) على سبيل طلب المغفرة .. »

هزت رأسها ، فلم يكن هذا سراً على كل حال ..

عاد يسألها :

ـ « وهل هذا بموافقة الملك ؟ »

ـ « وما أهمية هذا ؟ »

طقطق بشفتيه كأنما يكلم طفلاً شقياً ، وقال بطريقته الناعسة المائعة قليلاً :

ـ « هذا ليس سؤالاً تسأله الملكة .. قد يستتبع هذا نتائج خطيرة لها أبعد الأثر .. »

شعرت بتقزز من أسلوبه الأفعوانى الأملس ، فقالت :

ـ « لا يهم .. إن الرجل سيفقد عنقه على كل حال بعد ساعات .. »

- « وامرأته ؟ وابنته ؟ إنهما بالداخل معه .. »

هنا قررت أن تستعمل سلطتها بجدية :

- « كاردينال .. مُرْ هذا الثور أن يفتح الباب .. »

- « ليكن .. افتح الباب يا ثور .. »

وفتح الثور الباب الضخم ، فدخلت متهيبة ..

كان (مور) جالسًا على منضدة خشبية ، أمامه شمعة ، يلتهم بعض فطائر (الزنجبيل) ، وكانت ابنته جالسة عند قدميه تعتصر ساقه بذراعيها .. أما المرأة فكانت جالسة على المنضدة فى مواجهته تقرأ له من الكتاب المقدس ..

فما إن رأت (آن) حتى اتسعت عيناها ، وبرزت لها أنياب كما يحدث فى أفلام مصاصى الدماء :

- « أنتِ ؟!! »

هنا ربت (مور) على ذراعها مهدئا ، وتساقط فتات من فمه وهو يقول :

- « صبرًا يا (إلسترى) .. إن الطفلة لا ذنب لها فى هذا .. »

دنت (آن) منه محاذرة أن تدنو أكثر من مخالب المرأة ، وقالت له وهى تتحشرج بالدموع :

- « سير (توماس) .. إننى آسفة .. »

- « أولا : لست أراك جلادًا بل ضحية .. ثانيا : ليس الخلاص من بلد كهذا وزمن كهذا بالشىء الذى تعتذرين لى عنه .. إنها لخدمة عظمى حقًا .. »

ثم مدّ يده لها بواحدة من الفطائر :

- « كلى .. إن الولادة قد أنهكت قواك كما أرى .. »

- « شكرًا .. تشومب تشومب ! لماذا تأكل برغم أن إعدامك بعد ساعات ؟ »

- « إن زوجتى تصرّ على أن أكون بصحة جيدة لحظتها .. وعلى كل حال ليس لدى البائسة شىء آخر تقدمه لى .. »

ثم - بتهذيب - سألها :

- « لا ضغائن .. هل ثمة شىء يمكننى تقديمه لك ؟ »

- « لا شىء سوى المغفرة .. »

وتحاشت نظرات الأثنيين ، وتراجعت إلى الباب فقرعته .. وبعد دقائق كانت عائدة بصحبة الكاردينال (ولسى) إلى دارها ..

★ ★ ★

لم يكن (هنرى الثامن) موجودًا ساعة الإعدام .. كعادته كان يقوم برحلة صيد ؛ كى يتحاشى أن يكون فى (لندن) فى لحظات مؤسية كهذه ..



نظر للسماء ليرى الشروق للمرة الأخيرة ..
وسماء نهار الإعدام تكون جميلة دائمًا ..

على أنه سمع صوت طلقات المدفع ، فعرف أن الأمر تمّ بنجاح ..

لقد انتهى من استئصال ضميره اليقظ دون متاعب ..

ويمكنه الآن العودة إلى زوجته (آن) ، فقد فقد رغبته فى المزيد من الصيد ..

★ ★ ★

يقول من رأوا المشهد إنه كان مهيبًا ..

لقد صعد سير (توماس مور) إلى البرج ، وبنظرة سريعة رأى المشهد المألوف الخالد .. النطع الخشبى .. الجلاد الملثم .. السيف .. القس .. الكاردينال (ولسى) ..

نظر للسماء ليرى الشروق للمرة الأخيرة .. وسماء نهار الإعدام تكون جميلة دائمًا ، حتى يشعر المحكوم عليه بمزيد من الحسرة ..

تقدّم من النطع ، وقال للجلاد الملثم :

ـ « لا تتوتر .. إنك ترسلنى إلى خالقى .. »

ثم وضع رأسه على الخشب المبتل الذى غسله الندى ، ومن جيبه تناول قطعة ذهبية عليها رأس (هنرى الثامن) فدسها فى كف الجلاد على سبيل البقشيش!

يقولون إن سير (توماس مور) هو أول وآخر من

أعطى بقشيشًا لجلاده فى التاريخ .. لكن الحقيقة هى أن هذه كانت العادة فى ذلك الزمن ..

لا بد من إعطاء الحلوان للجلاد ؛ كى يعدمك بشكل سريع نظيف ..

وارتفع فى الهواء السيف ..

ثم هوى ..

ومعه انتهت إحدى أكثر الشخصيات مثالية وطهرًا فى تاريخ (أوروبا) ..

★ ★ ★

وفى المساء لم تكن دموع (عبير) قد جفّت بعد ..

من العسير أن يلقى المرء هذا الطراز النادر من الناس .. الطراز الذى يموت من أجل كلمته .. فما إن تلقاه حتى تجده قد مات بالفعل !

مدّت لها وصيفتها يدها بمنديل حريرى معطّر ، فتناولته (عبير) لتفرغ أنفها .. وهنا لاحظت أنها لم تر هذه الوصيفة الشقراء من قبل ..

- « ما اسمك ؟ »

- « أنا (جين) يا مولاتى .. (جين سيمور) .. »

ترى أين سمعت هذا الاسم من قبل ؟

★ ★ ★

٨ - يجب أن تهربى يا مولاتى !

كان (هنرى) يتردّد على غرفتها أكثر من اللازم فى الآونة الأخيرة ..

يجلس جوارها على الأريكة وسط الطنافس ، ويصغى للأشعار التى تتلوها (جين سيمور) بصوتها الرقيق المرتجف قليلاً ..

كانت (جين) شقراء جميلة ، لها عينان واسعتان كزهرتين متفتحتين .. وكانت تنم عن براءة وسذاجة وطفولة ..

لا يجب أن تكون عبقريًا فى التاريخ ، كى تتذكّر أن هذه الوصيفة ستكون زوجة (هنرى) الثالثة .. يكفيك أن تكون أنثى ..

وكانت (عبير) أنثى ، وقد فهمت على الفور هذا الاهتمام المبالغ فيه من (هنرى الثامن) بأمر وصيفتها .. ثم إن المشهد مكرّر على كل حال ، وقد لعبت هى ذات الدور مرارًا حين كانت وصيفة الملكة (كاترين) ..

تبا للرجال ! هل يحسبها حمقاء إلى هذا الحد ؟
وبرغم أنها لم تشعر قط بأى ميل نحوه ؛ إلا أن غريزة الأنثى جعلتها تشعر بغيرة حارقة عمياء .. كالطفل الذى يأخذون منه لعبة لا يحبها ولا تمثل له أية أهمية ، عندها يجن جنونه ويتمسك بها ..
ودون قصد منها وجدت نفسها تعامل (جين) أسوأ معاملة ممكنة ، وراحت تتكلم عن رغبتها فى الخلاص منها ..
لكن (كرومويل) أفهمها ـ فى غموض ـ أن (جين سيمور) موجودة حسب رغبة الملك شخصيًا ..

★ ★ ★

بعد فترة رزقت (آن) / (عبير) بطفل ذكر ..
هو خبر طيب لولا عيب صغير هو أنه ولد ميتًا ..
وجن جنون (هنرى) حين عرف هذا ، وراح يردد وهو لا يكف عن ضرب رأسه بالجدار حتى حطمه ـ الجدار طبعًا ـ :
ـ « إننى ملعون ! لا وريث لهذه المملكة التعسة ! »
والحق أنه كان يخشى ذلك من البداية ..
فقد كان ميلاد الذكور موتى يذكره بما يقال عن مرضه العضال الذى سيحرمه من الإنجاب .. كما كان

يذكره باللعنة التى أطلقها أبو (كاترين) على رأسه ، حين دعا عليه بالحرمان من الذرية للأبد ..
وحين دخل (كرومويل) على الملك وجده فى أسوأ حال ممكن .. كان يغلى غيظًا ، وقد صار وجهه كسرطان البحر المسلوق ، وراح يردد كلامًا من المعتاد فى هذه الظروف على غرار : كل هذا الملك وما من ذكر من صلبى ، و ... عجزت النساء عن إعطائى وريثًا ..
ثم ـ بلهجة كحد السيف البارد ـ قال :
ـ « تلك الحمقاء عجزت عن إنقاذ مخلصها ! »
اتسعت عينا (كرومويل) الضيقتان ، وقد فهم الرسالة على الفور ..
سيكون عليه الخلاص من الملكة .. لكن ليس بالطلاق هذه المرة .. فأسلوب الطلاق مع (كاترين) جلب الوبال عليهم ..
إن الموت أسلوب أكثر رشاقة ..

★ ★ ★

سهرة صاخبة هى من سهرات الملك (هنرى الثامن) ..
كانت الموسيقا العجيبة ـ موسيقا القرن السادس

عشر - تدوى بينما رجل يرتدى ما يشبه ثياب المهرجين ، يترنم بـ (بالادات) من مؤلفات (هنرى الثامن) الرديئة ..

الحق أن أى نوع من الشعر غير ما كتبه (هنرى) كان محرمًا فى البلاط .. وأى نوع من الغناء لا يروق له ممنوع تمامًا ..

وكانت النساء يرتدين الأقنعة على وجوههن ، أقنعة رشيقة لها مقابض للإمساك بها ، يستعملنها كأنها المراوح ..

وقد راحوا - الرجال والنساء - يرقصون ذلك الرقص الشبيه بالمشى الموقع .. فتعجب ، ما سر شغفهم بنشاط ممل كهذا ؟

مشت (آن) ساهمة فيما بينهم ، حين وقعت عيناها صدفة على أحد العازفين فى الفرقة الموسيقية ..

واصلت رحلة عينيها ثم تذكرت شيئًا ، فعادت تنظر إليه فى حيرة .. هذه الملامح الوسيمة .. هذا الشعر .. إنه هو .. (شريف) .. (شريف) زوجها فى عالم الواقع ..

أخيرًا ظهر .. وظهر أين ؟ فى بلاط (هنرى الثامن) الطاغية الإنجليزى الذى لا يكف عن التهام الطعام والزواج والقتل ..

معنى هذا أن لهذا العازف شأنًا فى القصة .. إنه سينقذها .. أو سيحاول إنقاذها ..

كان ينظر لها نظرات حيرى كمن يريد أن يقول شيئا ، وسره أن الملكة تبادله نظرات مماثلة .. ماذا يريد قوله ؟

ودون كلمة واحدة رأته يضع أداة العزف الخاصة به على الأرض ، ثم ينسحب فى خفة متجهًا إلى الشرفة ..

نظرت حولها فلم تر أحدًا يلاحظ أى شىء بصدد أحد .. الكل صاخب غارق فى الضوضاء والمرح ..

لذا - بخفة - تسللت إلى الشرفة لتلحق به ..

هناك فى الظلام كان واقفًا يلهث انفعالاً ، وكان الأسود يغلف سماته ، لكنها كانت تعرف موضع كل شعرة وكل ندبة .. أليس هو (شريف) ؟

قال لها فى تهذيب وهو يجثو على ركبة واحدة :

- « اغفرى لى وقاحتى يا مولاتى .. »

- « لا وقاحة هناك .. لقد دخلت الشرفة حين أردت أن أدخلها .. لا دور لك فى الأمر .. ثم إننى لم أعرف بعد من أنت ؟ »

طبعًا لم يقل : أنا (شريف) .. إنما قال :

- « محسوبك (مارك سمتون) .. معلم الموسيقا والرقص فى البلاط .. إنها المرة الأولى التى أعزف فيها أمام جلالتك .. »

حركت مروحتها فى ملل ، وسألته ناظرة للحديقة :

- « حسن يا (مارك) .. ماذا تريد ؟ »

- « أريد إنذارك يا مولاتى .. »

- « مم ؟ »

تنهد كأنما يجد عسرًا عظيمًا فى استكمال كلماته ، وقال :

- « من (هنرى الثامن) .. إن الأقاويل تتناثر فى البلاط .. ويمكن القول إنه سيتخلص منك قريبًا جدًا .. من أجل .. من أجل .. »

فى ملل أكثر سألته :

- « من أجل (جين سيمور) طبعًا ؟ »

- « أنت واسعة العلم يا مولاتى .. »

- « والحل ؟ »

نهض على قدميه ليظهر انفعاله ، وصاح :

- « يجب أن تفرى .. إن (أسبانيا) بلد مناسب جدًا .. »

لم تكن تفهم فى السياسة .. لكنها كانت تعرف ما يكفى :

- « (أسبانيا) ؟ من الممتع تصور ما سيفعله (فردناند) حين تأتيه ضرة ابنته لاجئة تطلب العون .. »

لم يكن قد فكر فى هذا .. لقد افترض أن (أسبانيا) عدوة (هنرى) هى - بالضرورة - صديقة أعدائه ..

قال لها بعد تفكير :

- « إذن .. فكرى فى (الدنمارك) .. فكرى فى أى شىء .. ولكن بسرعة .. »

ثم خرق حاجز الإيهام كعادتهم فى (فانتازيا) ، وقال :

- « إن (آن بولين) قد ماتت .. لكن لم يضع الوقت بالنسبة لك .. ما زال من الممكن تغيير التاريخ .. »

وهنا صمتت الموسيقا ، وعلا صوت القوم بالداخل وقد عادوا إلى إيقاع حياتهم العادى .. فصاح وهو يهرع إلى القاعة :

- « سأعود قبل أن يصير اختفائى ظاهرًا للعيان .. »

ووقفت وحدها فى الشرفة تفكر ..

الحق إنه لمأزق .. وهى لا تستطيع أن تأمل فى ظهور المرشد .. فقد عودها على أنه لا يظهر إلا حين يظهر .. والقصة لا تنتهى إلا حين تنتهى ..

★ ★ ★

فى الصباح كانت فى الحديقة مع (هنرى) تلعب لعبة عتيقة قريبة من التنس ، ولعلها الجد الأول لهذه اللعبة ..

كان (هنرى) متعكر المزاج كديدنه فى هذه الأيام ، وكان صموتًا محتقن الوجه .. حتى قروحه كانت تصدر رائحة أسوأ ، نوعًا مما يدلك على حالته النفسية المتدهورة ..

وحين ركض ليصد كرتها أدركت أنه يعرج نوعًا .. لقد عاوده النقرس ، ومن الواضح أن ليلته كانت أسود من شعر لحية (كرومويل) ..

أخيرًا ألقى بمطرحة العجين التى يمسك بها - وهى الجد الأول لمضرب التنس - معلنًا أنه ليس فى مزاج للعب اليوم ..

وانصرف محنقًا .. هنا دنا منها شابان من شباب البلاط المهذبين هما (هارى نوريس) و (وليام بريرتون) ، وصاحا يستأذنان الملك :

- « هل لنا أن نرفه عن جلالتها ؟ »

صاح دون أن ينظر للوراء :

- « رفها عنها أو هشما رأسها .. لا يهمّ ! »

احمرّ وجهها لهذه الإهانة أمام هذين .. لكن (هنرى) كان يزداد فظاظة معها يومًا بعد يوم ، حتى لم يعد يبالى كثيرًا بإخفاء فظاظته هذه أمام الآخرين .. وإخفاء الخلافات أمام الناس أمر يتعلق بالكرامة الشخصية أكثر منه بالرقة .. لكن (هنرى) كان قد اجتاز نقطة اللاعودة ..

تظاهر الشابان بأنهما لم يسمعا شيئًا وبدآ يتخذان أوضاع اللعب ..

وكان (بريرتون) هو أقرب واحد إلى موضعها ، فسمعته يهمس دون أن ينظر نحوها :

- « يجب أن تهربى يا مولاتى .. يجب ! »

★ ★ ★

٩ـ تحقيق .. تعذيب ..

وكل هراء من هذا النوع ..

هزت (عبير) رأسها وافتعلت ابتسامة ، وقالت :

ـ « إننى أسمع هذا التحذير أكثر من اللازم هذه الأيام .. »

قال لها وهو (ينطق) الكرة على مضربه :

ـ « إنها الشمس التى يبصرها الجميع .. »

وبأدب أردف :

ـ « فيما عدا العميان طبعًا .. »

هنا تدخل (نوريس) فى الكلام ، وقد بدا واضحًا أنه يعرف كل شىء :

ـ « .. إن كل ما يفكر فيه الملك الآن هو كيفية الخلاص منك .. وهو لن يطلقك بالتأكيد ، لأن طلاق زوجتين متتاليتين لأمر لن تحتمله أية كنيسة .. عليك بالهرب .. »

ـ « أهرب .. ولكن لأين ؟ وكيف ؟ »

قال (بريرتون) وهو يتراجع ليبدأ اللعب :

ـ « ثمة طريقة نعرفها .. عبر النهر .. فقط قولى إنك موافقة ، ولسوف نرتب لك كل شىء .. »

وبدأ اللعب ..

لكن بأى مزاج وأى عقل يمكنها متابعة ما يحدث ؟

★ ★ ★

استغرقت ثلاثة أيام فى اتخاذ قرارها ..

كان عليها أن ترتب كل شىء .. ثيابها وابنتها وحقائبها .. كيف يمكن الهرب مع وجود طفلة رضيعة ؟ بل ـ الأسوأ ـ كيف يمكن ترتيب هذا كله خلسة دون أن تشعر بها جاسوسات البلاط وخاصة (جين سيمور) ؟ بالتأكيد تريدها (جين) أن تفر .. لكن إحباط محاولة فرارها سيضيف لها نقاطًا لا بأس بها عند (هنرى) ..

هكذا راحت ترتب ما لا يمكن ترتيبه ، مستعينة طبعًا بصديقين وثقت فيهما هما (نوريس) و(بريرتون) اللذين شعرت أنهما يفهمان فى هذه الأمور ..

لكن لحظة اتخاذ القرار تكون متأخرة دائمًا .. كاللحظة التى يشعر فيها الخروف بأن شيئًا ما ليس

على ما يرام ، ويكون هذا بينما الجزار يفتح باب سطح البناية صبيحة عيد الأضحى ..

وهكذا وجدت (آن) ثلاثة من جند (هنرى الثامن) الأشداء ذوى اللحى الكثة والنظرات النارية ، ومعهم وصيفة عجوز مولولة لا تكف عن البكاء واللطم ..

وفى تهذيب يوشك أن يكون سبابا ، قال أكبرهم :

ـ « بأمر الملك (هنرى الثامن) سيتم اعتقالك يا مولاتى .. »

شدت قامتها كملكة حقيقية ، وتساءلت :

ـ « بأية تهمة ؟ »

ـ « هذا هو ما ستقرره اللجنة ! »

ولم تجد مناصا من القبول .. إن المقاومة لن تعنى سوى مزيد من (البهدلة) و (الفضيحة) ، ولعل الأمر يتضح بعد حين ..

★ ★ ★

كانت لجنة رهيبة تلك التى شكلها (هنرى الثامن) .. كان أعضاؤها من أصحاب المناصب العليا وذوى النفوذ ، بها دوقات وكونتات واللورد حامل أختام الدولة ، وعشرة من حاملى لقب فارس منهم سبعة قضاة ..

كان المجلس قد انعقد لدراسة مسألة سياسية مهمة : هل خانت الملكة زوجها أم لا ؟

هذه هى المفاجأة الباسمة التى أعدها (هنرى) لزوجته بمناسبة مرور ثلاث سنوات على زواجها منه ..

بالطبع كان الأمر شديد الحساسية وخصوصيا جدا ، لهذا استعملت اللجنة الألفاظ اللاتينية فى تحقيقاتها ..

وكان الشاهد الاول أمام اللجنة هو عازف موسيقا فى الفرقة التى تحيى حفلات (هنرى الثامن) ..

ـ « ما الذى أثار شكوكك ؟ »

يقول وعيناه تلتمعان تلذذا بأهميته :

ـ « لقد رأيتها تتسلل إلى الشرفة فى أثناء الحفل . وتلحق بذلك المدعو (مارك سمتون) حيث وقفت معه فترة لا بأس بها .. أعتقد يا سيدى أن هناك علاقة عاطفية ما بينهما .. »

سأله رئيس اللجنة شأن من يضيق الحبل حول فريسته :

ـ « هل كان يبدو عليهما سمت العاشقين ؟ »

ضحك الشاهد فى خبث :

ـ « هىء هىء .. إن من يقف مع حسناء فى

مكان مظلم فى ضوء القمر لا يحدثها عن قوانين (أرسطو) يا سيدى .. هىء هىء .. »

الشاهد الثانى :

هو المسئول عن رعاية الحديقة الملكية ..

- « ما الذى رأيت وآثار ريبتك يا رجل ؟ »

يحتضن الرجل قبعته فى عصبية ، ويقول :

- « ما إن انصرف مولانا عن لعب الكرة ؛ حتى دنا المدعوان (هارى نوريس) و (وليام بريرتون) ليقفا مع جلالتها .. وكانوا يتهامسون وإن تظاهروا بأنهم لا يتبادلون الحديث أصلاً .. »

- « يا رجل .. كيف تعرف أشياء كهذه ؟ »

ضحك الشاهد كاشفاً عن أسنانه النخرة ، وقال :

- « سيدى .. إننى لست أخضر غير ذى خبرة .. إن لى تجاربى مع بنات حواء ، وأعرف حديث العشاق حين أراه .. »

تبادل القضاة النظرات ..

كان هذا أكثر من كاف ..

★ ★ ★

- « أنا أخونه مع ثلاثة ؟! »

كذا صاحت (عبير) فى سجنها ببرج (لندن) ، حين أبلغتها الوصيفة العجوز بما عرفته من الحراس ..

كانت قد حاولت أن تجمل زنزانتها قليلاً ، فقامت بتثبيت ستائر على قضبان النافذة ، ووضعت مزهرية على المنضدة ، مع شموع وأغطية حريرية للفراش ..

الحق إنها كانت تعامل معاملة حسنة للغاية جديرة بملكة .. لكن من قال إن السجن المهذب يناسب الملكات ؟

وحين نقلت لها الوصيفة أخبار المحاكمة ، أدركت أن تحذير المرشد كان دقيقاً حقاً ..

والنتيجة : ثلاث محادثات بريئة اعتبرتها اللجنة دليلاً - غير قابل للدحض - على خيانتها .. والغريب أن المتهمين الثلاثة كانوا يحذرونها مما ستتسبب حماقتهم فى توريطها فيه !

صاحت غاضبة :

- « أى رجل (هنرى) هذا ؟ يسىء لشرفى وشرفه لمجرد الخلاص منى ؟ كان بوسعه أن يدس لى سماً أو يضرب عنقى .. »

فى حنان قالت الوصيفة :



ـ «أنا أخونه مع ثلاثة ؟!»
كذا صاحت (عبير) فى سجنها ببرج (لندن) ..

ـ « سيفعل هذا يا حبيبتى .. ولكن بالقانون ! »

عادت (عبير) تفكر وهى تقضم أظفارها ، ثم تساءلت :

ـ « ولكن (هنرى) ليس بالرجل الذى يرسم خططا بهذا التعقيد .. إنه نارى المزاج لا يستطيع أن يخطط ، أو يلعب أوراقه فى صمت .. إنه يفرح فيقهقه أو يغضب فيصرخ .. ترى من رسم له هذه الخطط ؟ »

قالت الوصيفة :

ـ « (كرومويل) يا مولاتى هو الذى رسم هذه الخطة كلها .. والآن بقى استجواب المتهمين الثلاثة .. »

ـ « سيسخرون منه .. »

فى حنان متزايد ضحكت الوصيفة :

ـ « بل سيعترفون يا مولاتى .. أعدك أنهم سيعترفون ! »

★ ★ ★

كان (كرومويل) مشغولا بحق ..

ففى ذلك القبو من برج (لندن) ، حيث لا يعرف المكان سوى قلة من الأحياء ؛ كان يقف وأمامه (وليام بريرتون) .. وكان هذا الأخير مكبلا بالسلاسل

الحديدية كأنه دبّ شرس سيؤدى عرضاً فى شوارع (لندن) ..

كان عارى الجذع لم يبق سنتيمتر من جسده دون جراح ولا كدمات ..

وجواره وقف ذلك العملاق الذى يرتدى قميصاً يكشف عن ذراعين بحجم الفخذين ، وصدر بحجم نطعى إعدام .. وعلى رأسه كان هناك غطاء يستر كل شىء عدا عينيه ..

تأمل (كروموبل) أسيره فى استمتاع ثم قال :

- « ترى هل حطموا كبرياءك بعد ؟ »

صاح الجلاّد بصوت كالخوار :

- « لا يا سيدى .. لكننا سنفعل .. »

لم يردّ (كروموبل) وإن اغتاظ لمقاطعته ، وعاد يسأل (بريرتون) :

- « ألن تعترف بقصة الحب بينك وبين الملكة ؟ »

- « سأعترف بشىء واحد .. »

قالها (بريرتون) وهو يرفع رأسه فى صعوبة ..

لكن (كروموبل) كان قد عذّب أناساً كثيرين ،

وكان يعرف أن هذا الأسير لن يقول سوى شىء على غرار : أعترف أنك وغد .. أو :

أعترف أن رائحتك كريهة .. فالموقف دائماً هكذا ..

- « سأعترف بأن رائحتك كريهة ! »

بدا الملل على وجه (كروموبل) .. كل هؤلاء الأبطال يتصرفون بذات الطريقة المملة ، ويقولون ذات الأشياء .. كأنهم يمثلون دوراً مرسوماً فى مسرحية لن يراها أحد .. أو يحاولون أن يضيفوا ما سيقولونه إلى الكتب الدراسية للأجيال القادمة ..

- « إن هذا يثير مللى .. كنت أحسبك أذكى من هذا .. »

وأشار إلى الجلاد كى يبدأ استعمال أدوات التعذيب .. وكانت هذه الأدوات من أفضل ما تم استيراده من محاكم التفتيش الأسبانية .. وتمثل جزءاً مهماً عزيزاً من تراث القضاء فى (إنجلترا) ..

الأداة الأولى عبارة عن ملزمة تحيط بالرأس ، ثم يبدأ الجلاد فى تحريك مقبض صغير يجعل الملزمة تطبق على الرأس أكثر فأكثر حتى ليوشك على الانفجار ..

إن فعاليتها كاملة برغم أنها تقتل السجناء أحيانا قبل أن يتكلموا ..

ثبت الجلاد أداته حول الرأس ، ثم راح يبكى ..

- « ماذا دهاك يا أحمق ؟ »

- « إنها دموع الفرح يا سيدى .. إننى شديد الحساسية ، يرتجف قلبى طربًا فى ضلوعى كلما عذبت أحدًا .. »

- « إذن حاول التماسك .. »

وهكذا راح الرجل يدير المقبض ببطء حول رأس (بريرتون) ..

النتيجة سريعة حاسمة .. هو ذا الوجه يحتقن وعروقه توشك على الانفجار .. يحاول التماسك فى كل لحظة حاسبًا أنه مرّ بأسوأ شىء ..

لكن هناك ما هو أسوأ ..

فى النهاية :

- « توقفففووووووووو!!!!!!!! ! »

دنا (كرومويل) منه فى تؤدة وانحنى ليسمع :

- « هه ؟ أنا فى الانتظار .. »

- « سأعترف بأى شىء .. »

- « ستقول إنك والملكة متحابان ؟ »

- « سأقول إننى أحبّ (ميدوسا) لو أردتم .. فقط لا تـ ...... »

- « فكّ أداتك .. »

هذه الأخيرة كانت موجهة للجلاد ، الذى شعر بخيبة أمل .. كان قد بدأ يتحمس لتوه ، وكان يطمع فى المزيد ..

ثم استدار (كرومويل) إلى أحد الحرس الواقفين :

- « هات المدعو (مارك سمتون) .. »

★ ★ ★

لم يكن (مارك) أفضل حالاً ..

ولما رأى ما أصاب رفيقه امتقع وجهه ، ثم ازداد احتقانًا وبدا أنه لو كان أقوى والسلاسل أوهى لمزقها على الفور ..

سأله (كرومويل) وهو ينظر من النافذة التى تطل على النهر :

- « هل ستعترف ؟ »

- « نعم .. سأعترف بشىء واحد .. »

- « هو أن رائحتى كريهة .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بـ .. بلى .. كيف عرفت ؟ »

ـ « كلهم يقولون الشىء ذاته .. هلم يا جلاد أدِ عملك .. »

عادت الدموع تطفر من عينى الجلاد وهو يثبت الملزمة حول رأس (مارك) .. واستعد ليبدأ عملية التعذيب الشيطانية ..

هنا قال (مارك) :

ـ « هل تعرف يا مستر (كرومويل) ما كنت أعمله فى الريف قبل أن أتخذ الموسيقا حرفة ؟ »

ـ « كنت لصًا ؟ »

ـ « بل حاويًا ! كانوا يربطوننى بالسلاسل الحديدية أمام القرويين ، وبعد ثوان كنت أتحرر .. مثل .. هذا ! »

وقبل أن يستوعبوا جملته كان قد حرر يديه ، وهوى على رأس الجلاد بالملزمة الحديدية ، وبوثبتين كان عند النافذة .. و ......

كما يقول الحواة هناك : الآن تراه .. الآن لا تراه ! »

★ ★ ★

١٠ ـ إننى رجل مائت ..

برغم كل شىء يمكن للمحاكمة أن تستمر ..

لقد كان الرجل شيطانًا ، ويمكن فيما بعد إصدار مرسوم يقضى بلعنه باعتباره على اتصال بـ (لوسيفر) .. والمشكلة الأدهى كانت غضبة (هنرى الثامن) التى لا تبقى ولا تذر ..

ـ « يهرب أمام عيونكم ، ومن برج (لندن) ذاته ؟ إنكم مجموعة من العاجزين ! »

والأدهى بما لا يقاس هو موقف الشعب حين يمجّد البطل (مارك سمتون) الذى خدع جند (كرومويل) ، ووثب فى النهر هاربًا برأسه من حد السيف ..

لكن هناك أشياء أكثر أهمية فى الوقت الحالى ..

★ ★ ★

وأمام المجلس الموقّر وقف (بريرتون) خافضًا عينيه بادى الذلة ، وكان ـ لهول الموقف ـ (هنرى الثامن) يجلس فى طرف القاعة يتابع ما يحدث بعينى صقر ..

يسأل (كرومويل) المتهم وهو يحوم حوله كعادة وكلاء النيابة وممثلى الادعاء منذ فجر التاريخ :

- « هل تعترف إذن بقصة الحب التى نشأت بينك وبين الملكة ؟ »

- « نعم يا سيدى .. »

- « وهل كانت الملكة تحبك بنفس القدر ؟ »

- « بل أكثر يا سيدى .. كانت تغمرنى بالهدايا والمال ، وتقول لى إننى أجمل رجل فى الكون .. »

ابتسم (كرومويل) ابتسامة جانبية كأنما يقول للقضاة : ماذا تريدون بعد هذا ؟ لقد انتهت مهمتى إذن ..

كان هذا الكلام يساوى الموت بلا مناقشة ..

لكن (بريرتون) كان قد وصل لمرحلة تجعل الموت مطلبًا ثمينًا عزيزًا .. الموت لا التعذيب فى برج (لندن) ..

كاد الموقف ينتهى ، حين دوت صرخة يعرفونها جميعًا :

- « انتظروا ! »

ونظروا ليروا (هنرى الثامن) يتقدم ببطنه البدين

نحو منصة الشهود ، فينحنى ليشد المتهم من طرف لحيته ..

- « قل الحقيقة أيها الحيوان ! هل حقًا أحببتك الملكة ؟! »

ارتجف المتهم البائس لهول العينين الناريتين والغضبة العاتية للملك ، ابتلع ريقه وقال وهو يهتز كله :

- « نـ .. نعم يا سيدى ! »

- « قل الحقيقة ! إنك ميت فى جميع الظروف .. تكلمت أم لم تتكلم .. فقل لى : هل عذبك (كرومويل) ؟! »

هنا سالت الدموع من عينى المتهم ، وهمس :

- « نـ .. نعم .. كـ .. كثيرًا .. »

- « ووعدك بالإفراج عنك لو قلت هذا الكلام الفارغ ؟ »

- « نـ .. نعم ! »

أطلق سراح لحيته ، ونظر إلى (كرومويل) :

- « كنت أعرف هذا .. »

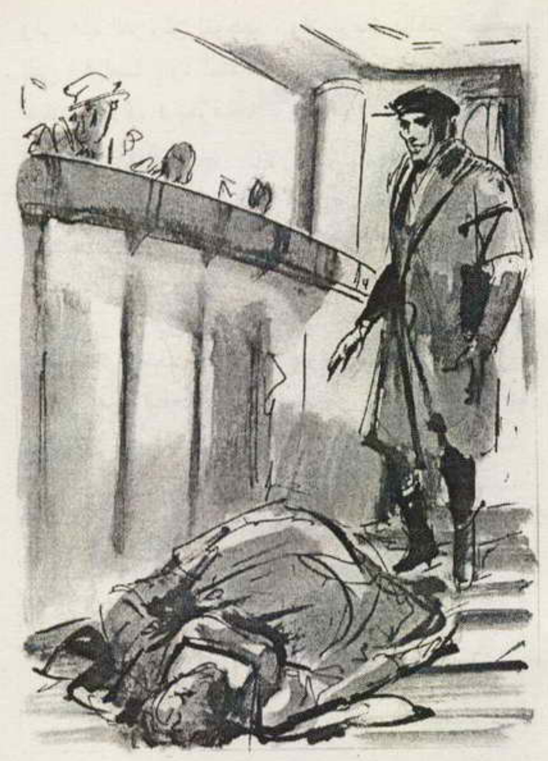
بادله (كرومويل) نظرة من نوع (ألم - نتفق - على - هذا ؟) .. وآثر الصمت ..

قال الملك وهو ينصرف :
ـ « تأكدوا من إعدام هذا البرىء الأحمق .. وأريد سرعة أكثر فى هذه المحاكمة .. »
ـ « ليكن يا سيدى .. »

★ ★ ★

غريب أمر هذا الـ (هنرى) ! وما أكثر تناقضاته !
لقد اتفق مع (كرومويل) على تلفيق تهمة الخيانة لـ (آن بولين) .. وها هو ذا يحطم التمثيلية ويفسدها بنفسه ..
لماذا يفعل ذلك ؟ لأن (بريرتون) كان أفضل مما ينبغى .. كان هو الصدق بعينه وهو يتكلم ، مما زعزع ثقة (هنرى) فى نفسه ..
للحظة حسب أن هذا ممكن ..
ثم إن كبرياءه لم يتحمل أن يقال هذا عن زوجته أمامه ، حتى لو كان هو مدبر المكيدة من اللحظة الأولى ..
وهكذا ـ فى لحظة ـ ينعكس منطقه ، ويغدو مستعدًا لنسف من يقول كلمة إفك عن زوجته ..
لكن المحاكمة استمرت على كل حال ..

وأخيرًا جاء دور (آن بولين) لتقف شامخة أمام قضاتها ، تعلن فى كبرياء أنها لم ولن تلوث اسم زوجها ..
ـ « لكن جميعهم اعترف عليك .. »
تبتسم ابتسامة تهكمية ، وتقول :
ـ « كلكم يعرف قيمة الاعترافات التى تأتى من برج (لندن) .. ولو كان جسد واحد من هؤلاء خاليًا من الكدمات لأصغيت لاعترافه باهتمام أكبر .. »
لكنها كانت تعرف ..
لقد حكم عليها (هنرى الثامن) بالإعدام ، ولا رادّ لهذا الحكم .. وكل ما يدور هنا هو تحصيل حاصل ..
(إننى رجل مائت) .. قالها سير (توماس مور) منذ شهور فى المكان ذاته ، لهذا لم يمت قبل أن يقول كل ما داراه بين أضلعه ..
هل تتكلم ؟
لا جدوى من هذا .. فليس حولها سوى (كرومويل) و(ولسى) ومن هو أسوأ منهما لو كان شىء كهذا ممكنًا ..
ـ « لقد وجدناك مذنبة أيتها الملكة (آن) ، وعليك حكمنا بالإعدام بالسيف فى برج (لندن) .. »



لماذا سقطت على الأرض أمام عينى (كرومويل) الثعلبيتين الضاحكتين ؟

كانت تنتظر هذه العبارة ، وتمنت أن تصغى إليها بابتسامة سخرية واثقة ، لكن لماذا تخلى وعيها وقدماها عنها ؟

اللعنة ! لماذا سقطت على الأرض أمام عينى (كرومويل) الثعلبيتين الضاحكتين ؟ »

لن تغفر لنفسها هذا طيلة الأسبوع الباقى ..

★ ★ ★

مشاعر المحكوم عليه بالإعدام ..

لقد لخصها (فكتور هوجو) ببراعة فى رواية (مذكرات محكوم عليه بالإعدام) كما مرَّ عليها (دستويفسكى) سريعًا فى (رسائل من بيت الموتى) ..

لم تقرأ (عبير) القصتين .. لكنها كانت تعيش التجربة للمرة الأولى فى (فانتازيا) ، وبدا لها الأمر حقيقيًا أكثر من اللازم ..

الصباح الباكر من يوم ١٩ مايو عام ١٩٣٦ ..

بالتأكيد سيكون (هنرى) وقتها فى (وستمنستر) يزجى وقته بانتظار سماع طلقة المدفع ، عندها يعرف أن زوجته الحبيبة فقدت رأسها ..

بعدها بعشرة أيام سيعلن زواجه من (جين سيمور) ..

وفى هذه المرة لن يتوجها ، ولن يرسل بالخبر السعيد إلى (فرنسا) و(أسبانيا) .. كل ما سيفعله هو استبدال حرف J بحرف A ، أول حرف من اسم (آن) فى كل أنحاء البلاد ..

ولسوف تنجب له (جين) الذكر من الأبناء ، وهو الأمير (إدوارد) .. لكن اضطراب (هنرى) وجنونه سيتزايد ويتفاقم .. ولسوف يتزوج سواها فسواها فسواها .. يطلق البعض ويقتل البعض .. ثم يموت ككلب عقور تتخذه (إنجلترا) رمزًا للجنون ..

إن نهاية الطغاة لشىء جميل .. لكننا ـ للأسف ـ لا نعيش غالبًا حتى نراها ..

★ ★ ★

١١ ـ إعدام فى البرج ..

(كررنا اسم الفصل لأنه الوسيلة الوحيدة للتعبير عن عملية الإعدام فى البرج)

لشدَّ ما جاء التاسع عشر من مايو ببطء !

كانت (عبير) تتوقع أن يأتى بسرعة جنونية ، لكنها تنسى طبائع الأشياء .. فالأسبوع السابق للإعدام ليس مليئا بالأفراح والمباهج ، بل هو أسبوع مفعم بالألم والترقب والدموع والتوترات .. وككل عاطفة مريرة فى الكون لا بد أن يمرّ ببطء السلحفاة ..

وعند الفجر سمعت صوت الأقفال تنزاح ..

الباب ينفتح .. صوت الأقدام الثقيلة .. لماذا تكون فرقة الإعدام دائمًا من أصحاب الأقدام الثقيلة التى تهز الأرض هزًا ؟

الوجوه الجادة الصارمة .. وجه القس المتعاطف .. وجه (ولسى) الذى يتظاهر بالرحمة بينما يرقص فؤاده طربًا ..

ـ « قد حان الوقت يا سيدتى .. »

حاولت أن تقول شيئا لكن الكلمات انحشرت فى حلقها ..

قال لها الكاردينال (ولسى) فى تهذيب :

ـ « أرجو أن تقومى بجمع شعرك فى إيشارب أو غطاء رأس .. إن هذا سيريح الجلاد كما تعلمين .. »

نهضت الوصيفة مولولة تسيل الدموع من عينيها وأنفها ، وراحت تؤدى هذه المهمة الأخيرة لسيدتها ..

ثم اتجهت (عبير) لتنضم إلى حراسها ..

★ ★ ★

بعد ما انتهت من صعود الدرج ــ بساقين من عجين ـ استطاعت أخيرًا أن ترى النور وتشم هواء الفجر ..

(مايو) .. الشهر الذى يتحسس قدميه ما بين الربيع والصيف ..

طيور تحلق فى السماء لا تدرى ما يدور تحتها ..

لقد كان لقاؤهما الأول ــ هى و (هنرى) ــ فى شهر (مايو) .. تذكر ذلك اليوم بشىء من الحنين .. إنها لم تحبه قط .. لكنها أحبت الجو العام لكل هذا .. وملاحقة ملك (إنجلترا) لها ..

ثم خفضت عينيها فرأت ..

كانوا هناك جميعًا : النطع والجلاد والكاردينال (ولسى) ..

وصيفتها لا تكف عن البكاء والعويل .. ليت هذه البلهاء تصمت .. إنها تنتزع عن اللحظة شاعريتها الحزينة ..

سرّها أنها لم تفقد الوعى ثانية ..

بعد موتها سيقولون إنها عرفت كيف تموت كملكة ..

★ ★ ★

وبدأت الطبول تدق فى إيقاع متسارع ، كما تفعل فى السيرك حين يوشك لاعب (الترابيز) على أداء فقرة الموت .. سينتهى هذا الإيقاع المتسارع فجأة .. الفارق هو أنه فى السيرك سيتعالى تصفيق الناس ، بينما هنا ستدوى طلقات المدفعية ..

سيسمعها الملك فى (وستمنستر) ، وسيأمر ركبه بالاتجاه فورًا إلى مسز (سيمور) ..

قيدوا يدها وراء ظهرها ..

وفى بطء اتجهت إلى النطع .. ربما كان يحمل بعد

آثارا من دماء سير (توماس مور) .. وضعت عنقها عليه ..
إنه بارد مبتل قليلا بفعل الندى ..
لا بأس يا (عبير) .. هذه ميتة بلا ألم .. ميتة من طراز (نور ـ ظلام) كأن هناك من أغلق زر الكهرباء فجأة ..
ترى هل يتألم من تقطع رأسهم ؟
إيقاع الطبول يتعالى ويتزايد .. إنه (الكريشندو) الموحى بدنو النهاية ..
هيا يا .....

★ ★ ★

شعرت بأنها تطير ..
ولثانية واحدة غابت عن الوعى ، ثم استردته لتفهم أن الجلاد ملقى على الأرض .. والدم ينزف من رأسه ..
ورأت الكاردينال يصرخ ويقول شيئا ما .. الحرس يصخبون .. ثم ها هى ذى تطير من جديد مبتعدة عن برج (لندن) ..
أخيرا تدرك أن هناك من يحيط خصرها بذراعه ..

للحظة تذكرت (طرزان) فى الأدغال ومغامرتها معه ..
ثم وجدت أنهما يدنوان من حافة (إفريز) بناية تقع على بعد مائتى متر من البرج ، ومن هذا الموضع ترى البرج عند قدميها ، وتسمع صراخ الكاردينال وهو يشير للحرس نحوهما ..
ثمة أسهم تنطلق ..
يقول لها وهو يساعدها على المشى جواره :
ـ « بسرعة ! إنهم مجانين ولن يتورعوا عن إطلاق المدافع .. »
وعند ركن البناية توقف ..
همس لها وهو يعتصر معصمها :
ـ « أغمضى عينيك .. ثقى بى ! »
فعلت كما قال .. وفى اللحظة التالية أدركت أنها تسقط .. تسقط بلا توقف .. ثم شعرت بالقش يملأ فمها وشعرها ..
لقد قفز بها فوق عربة ملأى بالقش يجرها حصانان عجوزان ..
صاح فى الفلاح العجوز الجالس وراء المقود :
ـ « هلم يا (جاك) .. أحسن تغطيتنا ! »

ودون كلمة أخرى غاص بها تحت طبقات القش ..
الظلام ورائحة العطن الخفيفة والرطوبة الحارة ..
ثم شعرت أنهما يتحركان ..
أخيرًا استطاعت تذكر من هو :
ـ « (مارك سمتون) ! حسبناك غادرت (إنجلترا) ! »
ـ « ما كنت لأفعل هذا بدونك .. »
ثم همس وهو يبصق القش من فمه :
ـ « ما رأيك فى هذه الطريقة ؟ أطلقت سهمًا على الجلاد .. ثم وثبت من سطح بناية متدليًا بحبل ، وانتشلتك ثم واصلت رحلتى إلى بناية أخرى .. لقد قمت بشدّ الحبل ليلا .. لكن الحمقى لم يلاحظوه .. كل واحد ظنّ الآخر قد علقه لغرض ما .. تفو تفو ! ..
متلاحقة الأنفاس سألته :
ـ « هذه فرصة لم تتح لـ (آن بولين) البائسة .. »
ـ « إن المصائر تختلف .. »
وماذا عن مصيرنا ؟ هل ستغادر (إنجلترا) بعربة القش هذه ؟ »
ضحك وبصق بعض القش ثم قال :
ـ « يا عزيزتى .. مهما بلغ من غباء حارس الحدود

فهو يعرف أن عليه أن ينخس أية عربة قش برمح كى يتأكد من سلامتها .. وطبعا ستنقلب (إنجلترا) كلها بحثًا عنك الآن .. إن (هنرى) لم يسمع صوت المدفع .. تفو تفو ! .. هذا يجعل الخروج عن طريق الحدود مستحيلا .. »
ـ « إذن ما الحلّ ؟ »
ـ « سنظل فى (لندن) .. سنعمل كمتسولين بعد تغيير مظهرنا .. ولسوف تمرّ أعوام طويلة قبل أن نفكر فى الهرب .. »
ـ « أنا أتسول ؟ »
ـ « إنها المهنة الوحيدة التى تسمح للمرء بأن يلطخ وجهه بالقذارة ويغطى وجهه بلثام ، ولا يثير الريبة .. »
هنا توقفت العربة ..
وسمعا من يعبث بالقش فوق رأسيهما ..
صاحت (عبير) فى هلع :
ـ « لقد كشفونا ! »
ـ « بأسرع مما توقعت .. »

★ ★ ★

لكنها استطاعت أن ترى وجه المرشد وابتسامته اللزجة ، وقد وقف فوق رأسيهما يرمقهما من خلال ثغرة صنعها فى القش ، بعد ما تسلق لظهر العربة طبعًا ..

قال لهما وهو يداعب قلمه :

ـ « كانت مغامرة جيدة .. ومحاولة مشكورة من الأخ (سمتون) ..

لكننى أخشى أنها انتهت الآن ، فلا داعى لقضاء حياتك فى التسوّل يا (عبير) .. »

قال (مارك) وهو يجلس نافضًا القش عن شعره :

ـ « لكنى سأ .. سأتزوجها ! »

ابتسم المرشد فى سماجة :

ـ « بأية صفة ؟ إنها لم تطلق من زوجها ولم تمت .. لقد غيرت مجرى التاريخ يا فتى ، وليجدن (هنرى) صعوبة بالغة فى الزواج من (جين سيمور) .. »

جلست (عبير) وراحت تبصق ما بلعته من قش ، كانا فى مكان ما وسط الريف كأنما بدأت قصتها فى الموضع ذاته ..

قالت وهى تنهض وتحاول الوثب من العربة :

ـ « هذا صحيح .. أنا لا أخون زوجى أبدا حتى لو كان (هنرى الثامن) .. ثم إننى اكتفيت من (إنجلترا) القرن السادس عشر .. »

قال (مارك) فى حزن وهو يتمدد وسط القش :

ـ « ليكن .. وداعًا أيتها السيدة الحسناء .. »

★ ★ ★

فى القصة القادمة تخوض (عبير) مغامرة الأحراش من جديد .. لا مع (طرزان) ولكن مع من يشبه (طرزان) ..

اسمه الشبح .. وصديقه (الشيطان) .. وحياته هى مزيج من الرعب والغموض وسحر القبائل المهيب ..

(تمت بحمد الله)

★ ★ ★

فانتازيا
مغامرات ممتعة
من أرض الخيال
روايات
مصرية للجيب

إعدام فى البرج


د. أحمد خالد توفيق

إن (هنرى الثامن) على استعداد لأن يقتل كى يفوز بها ، ثم غدا على استعداد لأن يقتل كى يتخلص منها !

من أجلها أطار عنق سير (توماس مور) أعظم فلاسفة العصر .. ومن أجل سواها أطار عنقها هى !

تعالوا إلى برج (لندن) كى نعرف القصة من بدايتها ..

الثمن فى مص
ومايعادله
فى سائر الدو العالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٤

